



من الشرق والغرب
نافذة على الفكر العالمي



العالم والغرب

بقلم
أرنولد توينبي



ترجمة: عبد الواحد الانباني
مراجعة: صالح جودت

من الشرق والغرب

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير
أرنولد توينبي

ترجمة: عبد الواحد الأنباري
مراجعة: صالح جودت

الفصل الأول

روسيا والغرب

لعل أنضل طريقة يقدم المؤلف بها موضوع الكتاب إلى قارئه هي أن يوضح له أولاً سر اختياره هذا العنوان الذي يحمله الكتاب فلوربما تساءل القارئ لماذا كان عنوان الكتاب العالم والغرب؟ أليست كلمة « الغرب » من الناحية العملية اسماً آخر لجزء كبير هام من أجزاء العالم اليوم؟ وإذا كان المؤلف يشعر بأن من واجبه أن يقول شيئاً ما عن بقية العالم غير الغربي فلماذا تحتم عليه أن يضع الكلمتين على هذا النحو؟ ولماذا لم يستطع أن يكتب الغرب والعالم بدلاً من العالم والغرب؟

لقد كان عليه على الأقل أن يضع كلمة « الغرب » أولاً .

اختار المؤلف عمداً هذا العنوان الذي يحمله الكتاب حتى يحدد نقطتين قدوان شيئاً أساسياً بالنسبة لفهم الموضوع الذي نحن بصدده .

النقطة الأولى : هي أن الغرب لم يكن يمثل في يوم من الأيام كل العالم، بل ولم يكن الممثل الوحيد الذي يقف بمفرده على خشبة مسرح التاريخ الحديث حتى في الوقت الذي كان فيه هذا الغرب في قمة قوته وأوج سلطانه (وقد نستطيع أن نقول : إن قمة القوة هذه بالنسبة للغرب قد انتهت الآن ولم يعد لها وجودها السابق).

أما النقطة الثانية : فهي أن العالم في الصراع للدائر حتى ومنذ أربعمئة أو خمسماية عام بينه وبين الغرب . هذا العالم — وليس الغرب هو الذي مر فوحده — حتى الآن بالتجربة التي كانت لها أهميتها القصوى . فليس الغرب هو الذي تعرض للصدمة التي أوقعها به العالم ، ولكن العالم هو الذي تلقى هذه الصدمة من جانب الغرب وكانت قاسية .

وهذا هو السر في أتى حين وضعت عنوان هذا الكتاب رأيت أن أقدم أولاً كلمة «العالم» على كلمة «الغرب» .

وعلى الرجل الغربي الذي يريد أن يفهم هذا الموضوع أن يحاول ، ولولدتائق معدودة أن ينسلخ من جلده الغربي لينظر إلى عملية الصراع التي تدور بين العالم وبين الغرب بعين الغالبية الساحقة من أعضاء الجنس البشرى الذين يعيشون داخل العالم غير الغربي .

وعلى الرغم مما قد يوجد من الاختلاف والتباين بين شعب وآخر من شعوب العالم غير الغربي من حيث الجنس واللغة والحضارة والدين فإنهم سيقفون جميعاً على إجابة واحدة فيما لو سألهم رجل غربي عن رأيهم في الغرب ، أنهم روسيون ومسلمون وصينيون وهندوس ويابانيون وغيرهم من بقية سكان العالم غير الغربي — سيؤكدون له جميعاً أن الغرب كان أكبر معتد في العصور الحديثة وأق لـكل منهم تجربته الخاصة فيما يتعلق بهذا الاعتداء .

نذكره الروس مثلاً بأن قوات الغرب قد غزت بلادهم في عام ١٩١٥ و ١٨١٢ و ١٧٠٩ و ١٦١٠ وستذكره شعوب افريقيا وآسيا بأن ارساليات الغرب الدينية وتجاره وخنوده قد أندفعوا عن طريق البحر إلى بلادهم ووصلوا إليها عبر السواحل والشواطئ منذ القرن الخامس عشر ، وسيذكره الآسيويون أيضاً بأن العناصر الغربية — في نفس هذه الفترة — قد استولت على نصيب الأسد من أراضي العالم الخالية في الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلاند وجنوب افريقيا وشرقها وسيذكره الافريقيون بأن الغرب قد حولهم إلى رقيق وذهب بهم عبر شواطئ الأطلنطي لكي يقوموا بوظائف الخدم عند المستعمرين الأوربيين في الأمريكيتين كآلات حية تعمل لإرضاء طبع أسيادهم الغربيين ، وإشباع نهمهم في تكوين الثروات ، وسيذكره أحفاد سكان أمريكا الشمالية الأصليين بأن الغرب قد قضى على أجدادهم لكي يخلو المكان للدخلاء من أبناء أوروبا الغربية من معهم من عبيدهم الافريقيين .

وليس من شك في أن هذه الاتهامات ستدهش معظم الغربيين اليوم وتهزهم وتحزنهم ، بل ربما تثير ثأرتهم وتدينهم فالغريون من أبناء هولندا يعرفون أنهم قد تركوا أندونيسيا ، والغريون البريطانيون قد جلوا عن الهند وباكستان وبورما وسيلان منذ عام ١٩٤٥ .

وإننا لننسى جميعاً ، بل ننسى في سهولة أن الألمان الذين اعتدوا على جيرانهم بما في ذلك روسيا في الحربين العالميتين الأولى والثانية هم أيضاً من العنصر الغربي ، ومن المعروف أن الروس والاسيويين والافريقيين جميعاً لا يميزون تمييزاً دقيقاً بين الأقوام المختلفة من الفرنجة franka وهو الاسم الشائع عن الغربيين بصفه عامة في جميع أنحاء العالم ، وعندما يجمع العالم على إصدار حكم يكون دائماً الحكم الأخير الذي لا يقبل النقض ولا الإبرام كما يقول المثل اللاتين المعروف .

ولا شك في أن هذا الحكم الذي يصدره العالم على الغرب يبدو أنه كان له ما يبرره خلال فترة الأربعة والنصف قرن التي انتهت عام ٤٥ ، فلقد كان الغرب في ضوء تجربة العالم به خلال كل هذه السنوات يمثل المعسكر المعتدى الوحيد على الجميع .

وإذا كانت روسيا والصين تعكسان اليوم هذا الوضع ضد الغرب فإن ذلك يعنى ظهور فصل جديد في القصة التي لم تبدأ حقاقتها الأولى إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وواضح أن خوف الدول الغربية وانزعاجها من الأعمال العدوانية التي تقوم بها كل من روسيا والصين على حساب الغرب - ليل على أن المسألة بالنسبة للشعوب الغربية تعنى تجربة غريبة يقاسى منها الغرب اليوم ماسبق أن قاساه العالم على أيدي الغربيين خلال عدة قرون مضت .

وإننا لنسأله هنا مرة أخرى عن ماهية هذه التجربة التي مر بها العالم مع الغرب وسيكون من الضروري أن نبدأ أولاً بتجربة روسيا معه ، لأن روسيا بالذات تعتبر جزءاً من الأغلبية الساحقة التي تشكل العالم غير الغربي ، فالروس على الرغم من أنهم كانوا مسيحيين ولا زال عدد كبير منهم حتى اليوم مسيحيين

فانهم لم يكونوا أبداً مسيحيين غربيين ، ذلك لأن روسيا لم تثلق دينها من روما
— كما فعلت إنجلترا مثلاً — بل تلقت من القسطنطينية .

وعلى الرغم من اشتراك المسيحية الشرقية والغربية في أصولها المسيحية
الأولى فإن كلا منهما كانت اجنبية عن الأخرى وكان التنافر والكراهية والعداء
تملأ قلب كل منهما حيال الثانية تماماً كما هو الحال الآن بين روسيا والغرب في
هذه المرحلة التي يمكن أن يسميها الإنسان مرحلة ما بعد المسيحية في تاريخها .

وهذه القصة المؤلمة على وجه العموم وهي قصة علاقات روسيا بالغرب قد
بدأت بفصل أسعد حالا ، فقد كانت كل من روسيا والغرب على الرغم من
اختلاف طريقة الحياة بينهما تتعايشان في جو من التعاطف الودي الطيب وذلك
في الفترات الأولى من العصور الوسطى حيث كان هناك تبادل تجارى بين شعوبهما
وكان هناك امتزاج وثيق تم بين الأسرات المالكة في كل من العالمين عن طريق
الزواج كما حدث مثلاً حين تزوج أحد الأمراء الروس ابنة هرولد ملك إنجلترا .

غير أن النقور بدأ يظهر بين روسيا والغرب خلال القرن الثالث عشر بعد
أن استولى التار على روسيا هؤلاء الذين كانت سيطرتهم عليها تأخذ دائماً شكل
السيطرة المؤقتة فلم يكن التار سوى جماعة من البدو الرحل ، وفدوا من المراعى
ولم يستطيعوا أن يتخذوا من حقول روسيا ولا من غاباتها مكاناً يستقرون فيه
استقراراً تاماً ، وكانت خسارة روسيا المستعمرة نتيجة لهذا الغزو التارى المتكرر
خسارة لم يستفد منها الغزاة التار أنفسهم بقدر ما استفاد منها جيرانها الغربيون
لأن هذه الدول الغربية قد نجحت في أن تنهز فرصة الضعف الذى أصاب روسيا
في ذلك الوقت واقتطعت الأطراف الغربية من العالم الروسى في روسيا البيضاء
وفي النصف الغربى من أوكرانيا ثم ضمها إلى ممتلكاتها ، ولم تستطع روسيا
أن تسترد الجزء الأخير من هذه المناطق الروسية الشاسعة التى استولت عليها
الدول الغربية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . إلا عام ١٩٤٥ .

ولقد كان هؤلاء الغزاة الغربيين — وكان ذلك على حساب روسيا —

في الحياة الروسية بالداخل كما كان لهم أثر كذلك على علاقاتها بغزاتها الغربيين وذلك في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى .

والواقع أن ضغط الغرب على روسيا لم يكن سبباً في وجود روح التنافر عند الروس من الغرب فقط بل كان من العوامل التي دفعت الروس إلى أن يذعنوا لسلطة روسية قومية جديدة مركزة في موسكو ، وهي السلطة التي فرضت على روسيا كلها الوحدة السياسية التي كان عليها الآن أن تحتفظ بها لو قدر لها أن تبقى .

ولم يكن من قبيل الصدفة أن توجد هذه الحكومة الروسية الأوتوقراطية المركزية الجديدة في موسكو لأن هذه المدينة تقع عند منتصف أسهل خط لغزو المنطقة الروسية التي تركها المعتدى الغربي . ومن المعروف أن القوات البولندية قد اتخذت هذا الطريق عند زحفها عام ١٦١٠ كما فعلت فرنسا عام ١٨١٢ وكما فعلت ألمانيا عام ١٩٢١ . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر ظلت الأوتوقراطية والمركزية طابعين يسودان كل الحكومات الروسية المتعاقبة . وربما كان هذا التقليد السياسي في روسيا شيئاً لا يحظى بموافقة الروس أنفسهم كما كان كذلك أمراً مستهيناً بل ومزعجاً لجيرانهم ولكن الروس لسوء الحظ قد تعلموا كيف يحتملونه ويصبرون عليه لأنه أصبح جزءاً من تقاليدهم الأصلية ولأنهم أحسوا أيضاً بأنه سيكون أهون عليهم من المصير البديل المحتوم وأعنى به غزو جيرانهم لهم .

وهذا الموقف من جانب الروس وهو موقف الإذعان والخضوع للحكم الأوتوقراطي الذي أصبح أمراً تقليدياً عندهم أصبح يمثل من غير شك أحد الصعوبات الروسية في مجال العلاقات بين الروس والغرب اليوم . فالغالبية العظمى من شعوب الغرب تشعر بأن الاستبداد والطغيان شر اجتماعي لا يمكن احتماله ، ولقد بذلنا الكثير لكي نقضى على الاستبداد حين أطل برأسه بين شعوب الغرب في صورة فاشية واشتراكية قومية ونشعر بنفس هذه التكرارات والريبة والمقت لهذا الاستبداد في شكله الروسي ، سواء أطلق على نفسه اسم

« القيصرية » ، أو « الشيوعية » ، ولا نريد أن نرى هذا النوع من الاستبداد الروسي ينتشر أو يتسع مداه ، فإننا نشعر بقلق بالغ تجاه ما يشكله هذا الوضع من خطر على مثلنا الغربية العليا ، مثلنا في الحرية التي نرى أنفسنا نحن « الفرنجة » ملزمين بالدفاع عنها لأول مرة في تاريخنا بعد حصار الترك لفينا عام ١٦٨٢ — ١٦٨٣ ولا شك في أن ما نشعر به الآن من قلق حبال ما يبدو تهديد ما بعد الحرب من جانب روسيا إزاء الغرب له ما يبرره في اعتقادنا . وعلينا في الوقت نفسه أن نكون يقظين بحيث لا نسمح للنكسة التي أصابت العلاقة بين روسيا والغرب منذ عام ١٩٤٥ بأن تنسينا الماضي ونحن نهتم اهتماماً طبيعياً بالحاضر .

فعندما ننظر إلى الصراع بين روسيا والغرب بعين المؤرخ لا بعين الصحفي نجد أن الروس خلال فترة امتدت عدة قرون وانتهت في عام ١٩٤٥ كانت لديهم نفس الأسباب التي جعلتهم ينظرون إلى الغرب بعين الشك التي نحس نحن الغربيين بأننا ننظر بها إلى روسيا اليوم .

وخلال القرون القليلة الماضية أصبح هذا التهديد الغربي على روسيا وهو التهديد الذي ظل قائماً منذ القرن الثالث عشر حتى عام ١٩٤٥ أكثر خطورة عليها بسبب ظهور الثورة التكنولوجية في الغرب ، وهو العامل الذي لا يزال قائماً حتى اليوم لم يظهر عليه أي أثر من آثار الضعف أو الوهن .

فعندما اخترع الغرب الأسلحة النارية اقتفت روسيا آثاره واستعملت هذه الأسلحة الجديدة في القرن السادس عشر لقهر التار في وادي الفولجا والتغلب كذلك على الشعوب الأكثر بدائية في جبال الأورال وسيبيريا ولكن تفوق الأسلحة الغربية على ما عداها من الأسلحة التي كانت موجودة في عام ١٩١٠ مكن البولنديين من احتلال موسكو والسيطرة عليها لمدة عامين في الوقت الذي تمكن فيه السويديون أيضاً من أن يحرروا روسيا من منفذها على البحر البلطقي عند رأس الخليج الفنلندي .

وكان رد الروس على هذه الأعمال العدوانية التي قام بها الغرب خلال القرن

السابع عشر هو أنهم اتخذوا تكنولوجيا الغرب بكلتها بما في ذلك أساليب الحياة الغربية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من التكنولوجيا الغربية .

وكان من خصائص الحكم المسكوبي الذي كان يتميز بالآوتوقراطية والمركزية أن هذه الثورة التكنولوجية والثورة الاجتماعية المصاحبة لها التي أدخلت روسيا في فترة الانتقال والتحول في القرنين السابع عشر والثامن عشر فرضها عليها من أعلى إلى أسفل حكم رجل عبثى واحد هو بطرس الأكبر . فقبله كان هذا الرجل بحق الشخصية التي يمكن أن تعتبرها مفتاح فهم علاقات العالم بالغرب ، لا في روسيا وحدها ، بل في كل مكان آخر . لأن بطرس هذا يعد بلا شك نموذجاً أساسياً ورئيسياً للصالح الآوتوقراطي الذي تأثر بالغرب والذي أنقذ العالم خلال المائتين والخمسين عاماً الماضية من أن يقع تماماً تحت السيطرة الغربية وذلك بإرغامه العالم على أن يدرب نفسه على مقاومة العدوان الغربي باستخدام الأسلحة الغربية فقد اقتنى السلطان سليم الأول ومحمد الثاني والرئيس كمال أتاتورك في تركيا ، وكذلك كبار رجال السياسة الذين أحدثوا ثورة غربية في اليابان في النيف والستين من القرن الثامن عشر - كل هؤلاء اقتفوا أثر بطرس الأكبر عن عمد أو عن غير عمد . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن بطرس الأكبر قد أطلق روسيا في ميدان السباق التكنولوجي مع الغرب وهو السباق الذي لازالت روسيا تجري خطواته في سرعة ولم تستطع أن تتوقف فيه لحظة واحدة لتستريح من عنائه لأن الغرب يوالى سيره من كل يوم ليحرز خطوات جديدة

ولقد حرص بطرس الأكبر كما حرص خلفاؤه الذين أتوا من بعده خلال القرن الثامن عشر جميعاً على أن تقترب روسيا إلى حد كبير من الغرب وتسير جنباً إلى جنب معه يومذاك حتى تستطيع أن تهزم غزاتها الغربيين من أبناء السويد عام ١٧٠٩ والفرنسيين في عام ١٨١٢ غير أن الغرب أثناء ثورته الصناعية في القرن التاسع عشر قد استطاع أن يتقدم ويترك روسيا خلفه حتى أنها انهزمت في الحرب العالمية الأولى على أيدي غزاتها الغربيين من الألمان كما هزمت قبل ذلك بماتى عام على أيدي البولنديين والسويديين واستطاعت

الحكومة الشيوعية الأوتوقراطية القائمة يومذاك أن تحل محل القيصرية في روسيا نتيجة لهزيمتها على أيدي التكنولوجيا الغربية الصناعية .

وبدأ الحكم الشيوعي من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٤١ يحقق لروسيا مرة أخرى ما سبق أن حققه بطرس القيصر لها منذ ٢٣٠ عاما مضت .

وللمرة الثانية في المرحلة الحديثة من تاريخ روسيا برغمها حاكم أوتوقراطي على أن تلحق بركب التكنولوجيا الغربية ولقد كان لسياسة الاستبداد التي استعملها هتلر في عهده لتحويل تكنولوجيا روسيا إلى تكنولوجيا غربية كان لهذه السياسة في الواقع ما يبررها فإن الثورة التكنولوجية في روسيا الشيوعية كانت عاملا رئيسيا ساعدها على أن تهزم غزاتها الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية تماما كما كانت الثورة التكنولوجية في عهد بطرس الأكبر سببا في أن تنتصر روسيا على الغزاة السويديين عام ١٧٠٩ والفرنسيين في عام ١٨١٢ .

وقد حدث بعد أشهر قليلة من إتمام تحرير روسيا أراضيها من الاحتلال الغربي الألماني في عام ١٩٤٥ أن ألقى حلفاء روسيا الغربيون قبلة خفية في اليابان فكان ذلك إيذانا بظهور الثورة التكنولوجية الغربية الثالثة . ولذلك أصبح على روسيا للمرة الثالثة في تاريخها أن تغد السير بعنف وأن تبذل الجهد الكبير لكي تلحق بالتكنولوجيا الغربية التي خلفت روسيا للمرة الثالثة ورامها بعد أن اندفعت هي إلى الأمام خطوات واسعة .

ولا زالت نتيجة هذا الحادث الثالث في مجال التنافس المستمر بين روسيا والغرب أمراً غامضا في المستقبل ولكنه أصبح من الواضح أن عودة السباق التكنولوجي يعني عودة المشاكل والصعاب الخطيرة التي تكتنف العلاقات اليوم بين هذين المجتمعين المسيحيين سابقا .

والمعروف أن كلمة تكنولوجيا اسم إغريقي طويل كان يطلق على حقبة الآلات ، وعلينا الآن إن نسال أنفسنا هذا السؤال . ما هي الآلات التي تملك ذات قيمة في هذا التنافس عندما نستخدمها كوسيلة من وسائل القوة ؟

ان نول النسيج ذا القوى او قاطرة السكك الحديدية تمثلان آلتين من الآلات التي تصلح لهذا الغرض وكذلك البندقية والطائرة .

ولكن . . ليست كل الآلات من النوع المادى ، فهناك آلات روحية أيضاً وهى أكثر الآلات التي صنعها الإنسان فعالية ، فالعقيدة مثلا يمكن أن تكون آلة . وقد حدث أثناء الدورة الجديدة من دورات التنافس بين روسيا والغرب وهو التنافس الذي ظهر ابتداء من عام ١٩١٧ أن ألقى الروس في كفتهم في الميزان عقيدة تزن وزنا ثقيلًا في مقابل الآلات المادية التي يملكها منافسهم الغربيون تماماً كما حدث حين ألقى « برناس » ، السيف ليزن بكفته كفة الذهب الرومانى كما هو معروف في القصة الرومانية الشهيرة عندما أراد برناس اقتداء روما من أيدي أبناء فرنسا القديمة .

وإذن فالشيوعية سلاح - وهى مثل القنابل والطائرات والمدافع - ينتمى إلى أصل غربي فلو لم يكن اثنان من الغربيين في القرن التاسع عشر ، واعنى بهما كارل ماركس وفريدريك انجلز اللذين عاشا في أرض الراين ، وقضى كل منهما أهم جزء من حياته العملية في لندن ومانشستر على التوالى - أقول لو لم يكن هذان الرجلان قد اخترعا الشيوعية لما أمكن ان تصبح هذه العقيدة ايديولوجية رسمية لروسيا فلم يكن هناك شيء في التقاليد الروسية يمكن ان يؤدي بالدرس إلى اختراع هذه العقيدة الشيوعية لأنه من المؤكد انهم لم يحملوا بها لو لم تكن معدة سلفاً في الغرب لكي تطبقها الحكومة الثورية الروسية في روسيا عام ١٩١٧ .

وحين اقتبس البولشفيك من الغرب الايديولوجية الغربية بالاضافة إلى ما اقتبسوه منه أيضاً من ثورة صناعية غربية لكي يتخذوا منها سلاحاً يواجهون به الغرب كانوا يحققون في عام ١٩١٧ عملية انتقال جديدة وعظيمة في التاريخ الروسى ، لأن هذه المرة كانت أول مرة تقتبس فيها روسيا عقيدة من الغرب . ولقد عرفنا من قبل أن المسيحية حين أتت إلى روسيا لم تأت إليها من الغرب وإنما جاءت إليها من الدولة البيزنطية حيث كان للبيزنطيين فيها روح وشكل غير غربيين وكانت تختلف عن مسيحية الغرب . . .

وقد بامت كل المحاولات التي بذلها الغرب في القرن الخامس عشر لفرض المسيحية الغربية على أوربا بالفشل الذريع . ففي اجتماع المجلس الأكليريكي الذي انعقد في مدينة فلورنسا عام ١٤٣٩ اعترف ممثلو الكنيسة الارثوذكسية الشرقية التي كانت لا تزال يومذاك تابعة للإمبراطورية البيزنطية مكرهين بسيادة بابوية روما الأكليريكية على أمل أن العالم الغربي بدوره - قد ينقذ القسطنطينية من الغزو التركي ، وكان أسقف موسكو المركزي ، وهو الذي كان دليلاً لبطريك القسطنطينية اليوناني حاضراً اجتماع المجلس ، وصوت بنفس الطريقة التي صوت بها زملاؤه الذين كانوا يمثلون الكنيسة الارثوذكسية اليونانية ولكن هذا الأسقف حين عاد إلى موسكو وجد أن الروس قد رفضوا اعترافه بسيادة البابا وليس هذا فحسب بل إنهم خلعوه أيضاً من منصبه .

وعندما ذهب بطرس الأكبر إلى الغرب بعد ذلك بمائتين وخمسين عاماً ليُعرف كيف وصل هذا الغرب إلى تكنولوجياه الحديثة لم يعد هناك أي الجاح من جانب الغرب بأن تتخذ روسيا الشكل الغربي للمسيحية كشمس لأن تكون أول دولة تتعرف على أسرار طاقة الغرب التكنولوجية .

ولم تأت السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر حتى كانت قد ظهرت في الغرب حركة نفور لا من التزمّت الديني فحسب بل من الدين نفسه كنتيجة للفتور الذي أصاب الغرب من الحروب الداخلية التي قامت بسبب الدين .

وهكذا كان العالم الغربي - في الوقت الذي كانت فيه روسيا وهي تليدة الغرب تحت حكم بطرس الأكبر - قد تحول إلى عالم ضال متزندق ، وسادت الأقلية الروسية التقدمية التي أصبحت تمثل في روسيا جماعة العملاء التي تعمل على انجاح حركة تغريب روسيا سارت هذه الأقلية على النمط الذي كان يسير عليه معاصروهم من الغربيين المتقدمين وذلك حين تحولت هذه الأقلية إلى جماعة يملأ قلبها نفور شديد من الشكل المسيحي الذي كان موجوداً داخل روسيا في ذلك الوقت دون أن تفكر في اللجوء إلى اتخاذ أي شكل آخر من أشكال المسيحية الغربية بدلاً منها .

وهكذا كانت روسيا حين اتخذت النظام الشيوعي عام ١٩١٧ تتخلى عن تقاليدھا التي درجت علیھا إذ اتخذت ولأول مرة فی تاریخھا عقيدة غربية (الشيوعية) .
ويلاحظ القارىء أن هذه العقيدة الغربية التي اتخذتها روسيا عام ١٩١٧ كانت العقيدة التي أدت دورھا بالنسبة لروسيا كسلاح غربي استخدمته فی إعلان حرب معادية للعرب . وكان الغربيون ينظرون إلى هذه العقيدة الجديدة الشيوعية التي انبثقت أصلا من بلادهم علی أنها طريقة أو ذیغ دينی كما كانت هذه العقيدة أيضا نقدا غريبا لفشل الغرب فی أن يسار مبادئها المسيحية فی الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذا المجتمع الذي يرى أنه مسیحی .

ولقد كانت هذه العقيدة التي تنتمی إلى أصل غربي والتي كانت تمثل فی الوقت نفسه اتهاما لما یجرى فی الغرب . بمثابة السلاح الروحي الذي التقطه عدو الغرب ووجهه ضد صانعيه واستطاعت روسيا التي أمسكت بهذا السلاح الروحي الغربي فی یدھا أن تنقل حربھا مع الغرب إلى ارض دولة العدو علی متن طائرة روحية .

ولما كانت الشيوعية قد ظهرت نتيجة لنفوس غربية قلقة فإنھا استطاعت أن تهیب كذلك بنفوس غربية قلقة أخرى وذلك حين عملت الدعاية الروسية علی ترویح الشيوعية مرة ثانية فی العالم الغربي .

ولهكذا حدث الآن ولأول مرة فی تاریخ العالم الغربي الحديث منذ نهاية القرن السابع عشر أن وجد الغرب نفسه مرة ثانية مهددا بانھیار روجی يأتيه من الداخل كما وجد نفسه مهددا بهجوم يأتيه من الخارج . وفي هذا التهديد تحطيم أسس الحضارة الغربية فی أرض الغرب نفسه واثبتت الشيوعية أنها سلاح معاد للغرب تمسك به روسيا وهو أكثر فعالية من أى سلاح مادی يمكن أن يكون .

ولقد كانت الشيوعية أيضا بالنسبة لروسيا بمثابة السلاح الذي استخدمته لكي تدخل إلى معسكرھا الشعب الصيني وهو الشعب الذي يمثل ربع الجنس البشري

كما تدخل كذلك قطاعات أخرى من هذه الاغلبية البشرية التي ليست بغربية ولا بروسية .

ونحن نعرف جيدا أن نتيجة الكفاح من أجل الحصول على ولاء هؤلاء الحيايين قد تكون أمرا خاسما بالنسبة لنتيجة الصراع الروسي الغربي بصفة عامة لأن هذه الاغلبية البشرية من السكان الذين لا يعتبرون جنسا أوزيا ولا روسيا سيكون لها وزنها في ترجيح كفة الميزان في صراع يقوم بين روسيا والغرب من أجل القوة العالمية . وتستطيع الشيوعية الآن أن توجه نداء مزدوجا إلى الفلاحين والقرويين والفقراء في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ففي استطاعة المتحدث الروسي الرسمي أن يقول أولا لفلاحى آسيا إذا اتبعت النظام الروسى فإن الشيوعية ستمدكم بالقوة لكي تقفوا في وجه الغرب لأن روسيا الشيوعية تستطيع أن تقف امامه اليوم فعلا اما النداء الثانى الذى تغرى به الشيوعية الفلاحين الآسيويين فهو ادعاء الشيوعية انها تستطيع ان تقضى على التباين الكبير بين الاقلية المرفهة الغنية والاغلبية التي يكاد يقتلها الجوع والحرمان في الدول الآسيوية وهى الخطوة التي ترى الشيوعية انها لا يمكن ان تحققها المشروعات الفردية .

ومهما يكن من امر فإن هؤلاء الآسيويين المتدمرين ليسوا وحدهم العناصر الجماهيرية التي تعتمد الشيوعية في اغرائها عليهم فإن الشيوعية كذلك تعمل على اغواء جميع الناس مادامت تستطيع ان تدعى انها تقدم للجنس البشرى الوحدة التي هى بديلنا دون غيرها عن الفناء الذاتى في عصر ذرى زهيب

ويبدو كما لو كانت المباداة الروحية في الصراع بين روسيا والغرب قد انتقلت الآن من جانب الغرب إلى جانب روسيا ونحن الغربيين لا يمكن ان نسلم بهم إذا لأن هذه الهرطقة الدينية واعنى بها الشيوعية التي اتبعتها الروس تبدو في نظر الاغلبية من شعوب الغرب مبدءا وطريقة للحياة هدامة متمرده ضالة .

وقد يقول احد علماء اللاهوت ان كارل ماركس اكبر زنديق غربي في عصرنا — قد ارتكب ما يمكن ان يكون خطأ فكريا في الدين وضللا خلقيا .

وعندما وضع أصبعه على إحدى النقط في التطبيق الأوثوذكسى الذى كان يوجد فيه حاجة ماسة للإصلاح فقد رؤية كل الاعتبارات ومن ثم قدم علاجاً كان أسوأ من المرض .

وليس من جدال فى أن هذا النجاح الأخير الذى أحرزه الروس فى انتزاعهم المبادأة منا نحن الغربيين بفضل اتخاذهم هذا الانحراف الغربى أى ما يسمى بالشيوعية لا يعنى بالطبع أن الشيوعية قد قدر لها أن تسود . فخيال كارل ماركس يبدو فى نظر غير الماركسيين من ضيق الأفق وسوء النسج بحيث لا يمكن أن يظل إلى الأبد موضع اقتناع عقول الناصر ومهوى قلوبهم وأفتدتهم ، فإن نجاح الشيوعية بتمرد ما وصلت إليه يبدو كندير شؤم لما يأتى بعد ذلك من أشياء ، فإن ما يعنيه هذا النذير أو هذا النجاح هو أن الصراع الذى يدور اليوم بين العالم والغرب يدفع بالطائرة التكنولوجية إلى مقدمة الطائرة الروحية .

وقد نجد فى تاريخ الصراع العالمى القديم مع الأغريق والرومان بعض الضوء الذى يوضح لنا ظلام الفصل التالى من القصة الذى لا يزال بالنسبة لنا أمراً يتعلق بالمستقبل ، غير أن علينا قبل أن ندرس هذا الموضوع أن نعرف أولاً كيف كان العالم الإسلامى والهندي وعالم الشرق الأقصى تسير فى صراعها مع كل من الغرب وروسيا كذلك .

الفصل الثاني

الإسلام والغرب

في الفصل السابق من هذا الكتابنا وضحنا نقطتين يتعلق كل منهما بالصراع بين روسيا والغرب .

النقطة الأولى منها هي أن روسيا قد عملت على أن تجعل من نفسها دولة تقف أمام الغرب بفضل ما اقتبسته منه من أسلحة غربية .

والنقطة الثانية هي أن من بين هذه الأسلحة التي اتخذتها روسيا عن الغرب سلاح العقيدة وعن طريق هذه العقيدة القومية وأعني بها الشيوعية استطاعت أن تنتقل من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم المضاد الذي أصبح يسبب لنا اليوم قلقا شديدا في الغرب .

على أن قصة العلاقات بين روسيا ومجتمعنا الغربي خلال الفترة التي عشناها تعتبر من بعض النواحي تكرارا لقصة أقدم وهي القصة التي لعب فيها الإسلام مع الحضارة الإغريقية الرومانية نفس الدور الذي لعبته روسيا مع الحضارة الغربية الحديثة .

ولقد مهد الإسلام لنفسه طريق سيره كبرنامج إصلاحى يعالج المساوىء والعيوب التي كانت عليها الحياة المسيحية في عصره ويوضح نجاح الإسلام في أيامه الأولى كيف تمكن أن تكون قوة دعوة الاتجاه الإصلاحى عندما يرفض دين السلف الذي تهاجمه هذه الدعوة تعديل وسائله وإصلاح أساليبه .

ولقد استطاع العرب المسلمون في القرن السابع الميلادى أن يحرروا من قبضة النفوذ الإغريق والرومان مجموعة الدول الشرقية التي تقع في المنطقة الممتدة من روسيا عبر شمال إفريقيا حتى أسبانيا . وهي الدولة التي ظلت خاضعة للحكم

الإغريق أو الرومانى قرابه ألف عام منذ أن قهر الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وقهر الرومان كذلك قرطاجنه .

ثم حدث بعد ذلك أى خلال الفترة التى تقع بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر أن استمر المسلمون فى مراحل مختلفه يحرزون النصر تلو النصر حتى استولوا على كل شبه القاره الهنديه تقريبا وأخذ دينهم ينتشر فى سلام ودون حرب إلى أندونيسيا والصين فى الشرق وإلى أفريقيا الاستوائية فى الجنوب الغربى وخضعت روسيا أيضاً كما رأينا خضوعاً مؤقتاً فى أواخر العصور الوسطى للتتار الذين اعتنقوا الإسلام .

أما بقية المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين فى آسيا الصغرى وجنوب أوروبا الشرقية فقد انتصر الترك العثمانيون المسلمون على بلادهم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وحاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية منذ عهد لا يتجاوز عام ١٦٧٢ — ١٦٨٣ وعلى الرغم من أن فشل هذا الحصار كان من علامات بداية تحول المد لصالح الغرب فى صراعه مع الامبراطورية العثمانية المعتدية فإن راية الهلال كانت لا تزال تخفق على الشاطئ الادرياتيكي المواجه للطرف الجنوبي الشرقى من ايطاليا منذ فترة ليست ابعـد من عام ١٩١٢ .

وليس من شك فى ان هذه الانتصارات العسكرية والسياسية الكبيرة فى المراحل الأولى من تاريخ الإسلام تفسر لنا سر تباطؤ الترك وشعوب الممالك الإسلامية الأخرى فى الأخذ بسياسة بطرس الأكبر أى ان تجعل من نفسها دولاً تقف أمام الغرب بعد ان تقتبس منه اسلحته وأوداته ونظمه وافكاره فالمعروف ان تغريب روسيا (تكنولوجيا) قد بدا على يد بطرس الأكبر بعد اقل من مائة عام من احتلال الغزاة الغربيين البولنديين لموسكو فى الفترة ما بين عامى ١٦١٠ — ١٦١٢ وعلى العكس من ذلك فإن أى سلطان تركى لم يتخذ ايه خطوة اوليه نحو تدريب جيش المشاه التركى على النظام الغربى إلا بعد مرور اكثر من مائة عام على وقوع الكارثة التى حلت بتركيا فى فيينا عام ١٦٨٣ .

ومرت مائتان وسبعة وثلاثون عاما قبل أن يقوم رجل ينتمى إلى طائفة رجال السياسة الأتراك بإلهاب حماس شعبه ودفع مواطنيه إلى اقتباس طريقة الحياة الغربية دون ما تحفظ ولا تباطؤ ، فإن صدمة الهزيمة التى تلقتها تركيا على أيدي روسيا فى الحرب الروسية التركية الكبرى التى استمرت من عام ١٧٦٨ حتى عام ١٧٧٤ كانت بمثابة الحافز الذى دفع السلطان سليم الثالث — الذى تولى العرش فى عام ١٧٨٩ إلى القيام لأول مرة بتنفيذ برنامج الإصلاحات العسكرية الذى قام به . فحتى هذا التاريخ كان الأتراك لا يزالون ينظرون إلى الروس على أنهم أولاد عمومة لرعايا الترك من البلغاريين واليونان الأرثوذكس المسيحيين الشرقيين الذين يحتقرهم الترك غير أن الأتراك فى نفس هذا الوقت كانوا يقاسون الشيء الكثير من الهزيمة الفادحة التى أوقعها بهم هؤلاء الروس الأجلاف والسبب فى ذلك هو إجادة هؤلاء الروس تكنيك العسكرية الغربية .

أما فيما يتعلق بحركة التخريب الشاملة التى قام بها مصطفى كمال أتاتورك فى عام ١٩١٩ فإننا قد نشك فيما إذا كان هذا الرجل يصيرته النافذة وبعد نظره الثاقب وقوته الدافعة الجبارة سينجح فى إخراج تركيا من تقليديتها المحافظة العتيقة لو لم يجد الأتراك أنفسهم بعد الحرب العالمية الأولى فى موقف اختياري حتمى بين امرين لا مفر منهما . فإما أن يأخذوا أنفسهم بالنظام الغربى فى حماس واندفاع ، وإما أن يفضلوا الطرف الآخر ومعناه القضاء المطلق الشامل .

والواقع هو أن الهجرم الغربى المضاد على العالم الإسلامى — وهو الهجوم الذى كان مقدراً له أن يقع إن آجلاً أو عاجلاً بعد فشل الأتراك فى فيينا عام ١٦٨٣ — هذا الهجوم قد تأخر بسبب ما يحفظه الغرب من ذكريات بعيدة الزمن عن الشجاعة العسكرية التاريخية التى كان عليها الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى . وكان رد العالم الغربى على غزو الأتراك للبلاد المسيحية الأرثوذكسية الشرقية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر هو ألا يقوم بهجوم أسمى جديد على العالم الإسلامى على نمط الحروب الصليبية التى منيت بهزيمة ساحقة بل بتطويق المسلمين عن طريق السيطرة على المحيط .

ودفع الطواف حول أفريقيا عن طريق البحر ، البرتغاليين ، وهم بحارة غزيون ، إلى الشاطئ الغربي للهند وذلك قبل عدة سنوات من وصول المغول إليه من آسيا الوسطى عن طريق البر ، وهؤلاء المغول يمثلون آخر موجة من موجات الهجوم الإسلامي على الهند ، على أن اجتياز الأسبان المحيطين الأطلنطي والباسفيكي عن طريق المكسيك قد أقام في جزر الفيلبين حداً جديداً في الجهة الشرقية من آسيا بين البلاد المسيحية الغربية وبين البلاد الإسلامية التي كانت تجاورها حتى ذلك الوقت على الجانب الآخر للكرة الأرضية في وادي الدانوب وفي المنطقة الغربية من البحر الأبيض المتوسط .

ولاشك في أن العالم الغربي قد نجح قبل نهاية القرن السادس عشر — ويرجع الفضل في ذلك بالطبع إلى استيلائه على المحيط — في محاصرة الدول الإسلامية ولم يحدث أن اشتد هذا الجصار على نحو عنيف إلا في بداية القرن التاسع عشر وحتى في ذلك الوقت كانت الذكريات التي يحتفظ بها كلا الجانبين عن شجاعة المسلمين العسكرية ومراسمهم العسكرية أيضاً في الماضي سبباً في أن يظل الغربيون على حذر ، وأن يظل المسلمون في حالة الرضا أو الاطمئنان الذاتي .

وكانت التجربة التي حطمت في بطن نوبة الرضا الذاتي التي كان عليها المسلمون هي تلك الهزيمة العسكرية الثانية التي أصابت الإمبراطورية العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية الأخرى على أيدي أعداء مسلحين بالأسلحة الغربية والتكنولوجيا الغربية والعلم الغربي وهي التي تعتبر في مجموعها العمود الفقري لفنون الحرب الغربية الحديثة .

وكان رد الفعل لهذه التجربة عند المسلمين هو نفس رد الفعل الذي حدث للروس . والمؤكد أن الضابط العسكري أو البحري في تركيا ابتداء من عام ١٧٨٩ حتى عام ١٩١٩ وكذلك في روسيا ابتداء من عام ١٦٩٩ حتى عام ١٨٢٥ كان هو النموذج الثوري للرجل الذي ينادى بالاتجاه الغربي والاقتباس من الغرب . وكان هذا الأمر بالنسبة للعقلية العربية مسألة تدعو إلى الدهشة لأن أفراد كتائب ضباط الجيش في القوات المحاربة في أية دولة من الدول الغربية لا يمثلون بذور

الثورة بقدر ما هم حماة للتقاليد المحافظة ولكن هذا هو ما حدث : والحقائق لا يمكن التنازع أو الاختلاف حولها . ففي روسيا — مثلاً — كان أكثر أعوان القيصر بطرس الأكبر فعالية في تنفيذ برنامج الثورة نحو تغريب روسيا من بين ضباط حرسه من الشبان . وبعد حكمه بأكثر من مائة عام كان الضباط العسكريون الذين تأثروا بالأفكار السياسية الغربية التي كانت سائدة في الغرب في عام ١٨١٤ عندما كانوا يخدمون في جيش الاحتلال التابع للحلفاء في فرنسا كان هؤلاء الضباط هم الذين وضعوا خطط ثورة ١٨٢٥ ضد القيصر التقلبدى المحافظ . ويقولون الأول ، والتي لم يقدر لها النجاح .

وفي القرن التاسع عشر كانت الرسالة النموذجية لأي نبى أوقاد ثورى روسى هى أن يكون ابناً لأحد ملاك الأراضي الأثرياء يلتحق بالخدمة العسكرية أو المدنية وينشر المقالات التى تتسم بالطابع الفلسفى فى مجلة أدبية ثم يعتزل عمله كموظف فى الحكومة الامبراطورية فى سن مبكرة ليقضى بقية حياته يعيش كرجل اجر ارضه وتفرغ لخدمة قضية الإصلاح السياسى والاجتماعى فى روسيا على النمط الغربى .

وكانت هذه القصة فى جوهرها هى نفس القصة فى تركيا وقد بدأ السلطان سليم الثالث وهوراند عملية التغريب الذى لم يصادفه النجاح — كما بدأ خليفته محمود الثانى وهو أكثر فاعلية وتأثيراً من سابقه — بدأ كل منهما بإنشاء وحدات عسكرية مدربة على النظام الغربى وكان الضباط العسكريون الشبان من الأتراك يمثلون فى الثورة التركية التى شهدناها عام ١٩٠٨ وهى الثورة الناجحة التى تقابل مثيلاً لها ولكنها غير ناجحة واعدى بها ثورة روسيا عام ١٨٢٥ حيث الشبان يشكلون العنصر المحرك والقوى الدافعة فى هذه الثورة .

وفىما يتصل بموقف تركيا يبدو السبب واضحاً فى ظهور الضباط الشبان على مسرح الدعوة إلى حركة التغريب . فقد كان هدف الثورة التركية التى قامت عام ١٩٠٨ هو إعادة صياغة دستور عام ١٨٧٦ البرلمانى التركى على نمط غربى جديد

ولكن سرعان ما عارض السلطان الرجعي عبد الحميد الثاني هذا الدستور الجديد. ورفضه ، فقد كانت الاستراتيجية السياسية عند هذا السلطان خلال ثلاثين عاما من حكمه المطلق لكي يتأكد من أن مبادئ حرية الرأي. الغربية لن ترفع رأسها مرة ثانية في تركيا هي أن يقضى على كل أشكال « الأفكار الهدامة » ويخمدوها .

وأثناء حكم هذا السلطان وجدت الرقابة الشديدة على الكتب كما وضعت السيطرة التامة على شؤون التعليم غير أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعتبره خروجاً على المؤلف من أسلوب حكمه وسياسته الرجعية وهو الحكم الذي سار على وتيرة واحدة ، هو تعليم طلبه الكلية الحربية التركية الخدمة الحربية على أسس فنية ، فقد كان السلطان عبد الحميد يخاف أشد الخوف من الثورة ولكنه في نفس الوقت كان ذا فطنة حين أدرك أنه سيفقد إمبراطوريته على نحو آخر إذا حدث أن انتصرت عليها مثلاً دولة أجنبية ذات قوة عسكرية تفوقها إذا لم يمكن الطلبة العسكريين الأتراك من مساهمة بواجب التقدم التي أحرزها الغرب في ميدان العلوم العسكرية وحاول بالطبع أن يجعل تعليم هؤلاء الطلبة فنون العسكرية الغربية داخل أضيق حدود فنية ممكنة إلا أنه ما أن سمح لهؤلاء الطلبة الأتراك بأن يتعلموا اللغات الغربية لكي يدرسوا الكتب العسكرية الغربية في نصوصها الأصلية حتى أصبح من المستحيل عليه أن يعزل بعد ذلك عقولهم عن الأفكار السياسية الغربية .

وهكذا غدا هؤلاء الطلبة العسكريون يشكلون في تركيا خلال حكم السلطان عبد الحميد الطبقة التركية الوحيدة التي استطاعت أن تبقى النافذة العقلية مفتوحة أمام التأثيرات التي تهب من الغرب .

وهذا هو السر الذي جعل الشباب من الضباط العسكريين بمثابة رأس الحربة التي حملت الآراء الغربية إلى تركيا في عام ١٩٠٨ بعد ثلاثين عاما من حكم استبدادي مظلم .

على أن ضرورة تغريب الجيش التركي — أي تحويله إلى جيش غربي في مستواه الفني وهي ضرورة اعترف بها رجل متطرف في رجعيته مثل السلطان.

عبد الحميد الثاني واعترف بها أيضاً من قبل — كما سبق ان ذكرنا — السلطان سليم الثالث صاحب العقلية المتحررة والرجل السىء الحظ صاحب العقلية إلا أن اعتراف هذا الرجل بها كان قبل حكم عبد الحميد الطاغية بمائه عام .

ولكن فى هذا الفصل الأول من القصة لم يكن حتى لدى هؤلاء المقتنعين بأهمية عملية التغريب فى تركيا حب صادق نحو الحضارة الغربية الأجنبية التى كانوا يعملون عامدين على إدخالها لأن هدفهم كان مجرد أخذ أقل جرعة ممكنة من الحضارة الغربية للابقاء على حياة رجل أوروبا المريض . وهذه الروح العدائية عند الأتراك تجاه الحضارة الغربية الأجنبية كانت سبباً فى أن يفشل كل إصلاح بعد آخر من الإصلاحات الغربية فى تركيا .

وكان حكم التاريج على هذه المدرسة القديمة من الداعين إلى النظام الغربى فى تركيا هو أن دكل وقت كان أقل مما يجب وبعد ما كان يجب ، فقد كان هؤلاء يأملون أن يجعلوا من تركيا دولة تستطيع أن تقف فى ميدان الحرب أمام دول غربية مثل النمسا أو أمام دول أخذت نفسها بالنظام الغربى مثل روسيا .

كانوا يأملون أن يجعلوا من تركيا هذا النموذج من الدولة بمجرد وضع الملابس العسكرية الرسمية الغربية فقط فوق أجساد الجنود الأتراك ووضع الأسلحة الغربية كذلك فى أيديهم وإعطاء الضباط الأتراك قسماً وافراً من التدريب العسكرى الفنى الغربى ثم يريدون الابقاء بعد ذلك على كل مظاهر الحياة التركية التى تعتمد على أساس من تقاليدھا الإسلامية الموروثة .

وكان السبب فى فشل هذه السياسة أى سياسة الأخذ بأقل جرعة من دواء تغريب تركيا — وكان مقدرأ لها أن تفشل — راجعاً إلى ان هذه السياسة قد رفضت الحقيقة التى عى عنها كذلك المصلحون العسكرون الأول من الأتراك وهى الحقيقة التى كان إدراك بطرس الأكبر لها وإيمانه بها دليلاً على عبقرية وبراعته ، هذه الحقيقة هى أن اية حضارة اعنى أنها طريقة من طرق الحياة ،

هى كل متكامل لا يتجزأ تتمزح فيه كل الأجزاء ويعتمد كل منها على الآخر دون ما استقلال .

ولا نستطيع أن نقول أن سر تفوق الغرب مثلاً على بقية أمم العالم فى فنون الحرب ابتداء من القرن السابع عشر فصاعداً إنما يكمن فقط فى أسلحته وتدريباته العسكرية أو فى تكنولوجيته المدنية التى انتجت المعدات العسكرية فلن يمكن فهم هذا السر دون أن نضع فى الاعتبار أيضاً كل عقلية وروح المجتمع الغربى فى ذلك العصر .

ولا شك فى أن فنون الحرب الغربية كانت دائماً ولا تزال مجرد جانب من جوانب طريقة الحياة الغربية ، ومن ثم فإن أى مجتمع اجنبى حاول أن يحصل على الفن دون أن يحاول أن يعيش ، فالمجتمع الذى يريد أن يأخذ عنه هذا الفن لا بد وأن يفشل فى إجادة هذا الفن بينما نرى على العكس أن أى ضابط عسكرى روسياً كان أم تركياً أم من أى بلد آخر غير غربى لم ينجح فى فنه الى المستوى الغربى العادى إلا بعد أن حصل على قدر من الحضارة الغربية أكثر مما هو موجود فى نصوص الكتب العسكرية وأكثر مما استفاده من العرض العسكرى .

والواقع أن أقل حل وهو الحل الذى دار حوله البحث طويلاً للسألة الغربية من جانب تركيا لم يكن حلاً على الإطلاق . ذلك لأنه كانت هناك نهايتان بديلتان عمليتان للقصة فإما أن تدفع تركيا ثمن ما ارتكبته من خطأ حين أخذت أقل جرعة من دواء الحضارة الغربية ، وإما أن تنقذ نفسها من الانهيار بالتحول إلى النظام الغربى بكل عواطفها وعقلها وروحها وقوتها ، وبعد أن دفع الأتراك بأنفسهم إلى حافة الدمار حين فضلوا الأخذ بالطريقة الأولى رجعوا فأنقذوا أنفسهم — قبل أن يمضى الوقت — باندفاعهم اندفاعاً عارماً فى الأخذ بالنظام الغربى على نحو غير محدود وذلك تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك ، وكان أتاتورك هذا واحداً من هؤلاء الضباط الشبان الذين تشبعوا بالأفكار الغربية يوم أن كان يتلقى التعليم العسكرى الغربى اثناء الأيام الأخيرة من حكم

عبد الحميد . ومن ثم اسهم بدور فعال في ثورة ١٩٠٨ وقد جاءت فرصة مصطفى كمال حين ضعفت تركيا نتيجة تحملها قسطاً في الهزيمة التي لحقت بحليفها المانيا في الحرب العالمية الاولى .

ولقد كان لاتاتورك من الفطنة وبعد النظر ما جعله يدرك أن أنصاف الحلول فيما يتعلق بموضوع تغريب تركيا ، وهي السياسة التي كانت دائماً مسيياً في إيقاع الكوارث بها ، ستكون اليوم من أخطر الاتجاهات التي يمكن أن تحمل بتركيا ، كما كانت لاتاتورك أيضاً شخصيته المتميزة التي مكنته من أن يحرك وراءه جموع الجماهير وحشودهم .

وكانت سياسته تهدف إلى تحويل تركيا تحويلاً كاملاً دون النظر إلى أية عقبة يمكن أن تقوم نحو الأخذ بطريقة الحياة الغربية . ولذلك بدأ في عشرينيات القرن ينفذ في تركيا ما يمكن أن يكون برنامجاً يشبه في ثورته أي برنامج ثوري آخر تم تنفيذه في أي بلد آخر من بلاد العالم قائم على نظم مرسومة وفي أقل وقت ممكن . وكانت هذه الثورة أشبه في عالمنا الغربي بعصر الإصلاح وبعصر الثورة العقلية التي قامت على العلم الدنيوي في أواخر القرن السابع عشر والثورة الفرنسية والثورة الصناعية وكأنها تجمعت كلها في عمر واحد وفرضها القانون بقوته فقد اتخنت في تركيا تشريعات خاصة بتحرير المرأة واستخدام الأبجدية اللاتينية بدلاً من الأبجدية العربية الخ وذلك في الفترة ما بين عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٨ .

وقد قام بإحداث هذه الثورة دكتاتور أخذ يعمل عن طريق حزب واحد يتمتع باحتكار السلطة دون سواه ولعل هذه المكاسب كلها لم يكن من المستطاع تحقيقها بهذه السرعة العجيبة لو أن الأسلوب الذي استخدم في تحقيقها كان أقل دكتاتورية من هذا ، وكان على تركيا خلال العشرينيات الأولى من القرن العشرين أن تختار بين أمرين فإما أن تقلب حياتها رأساً على عقب وتغير حياتها تغييراً شاملاً وإما أن تستسلم للفناء ، وآثر الشعب التركي أن يبقى مهما كلفه ذلك

من تضحيات ، وكانت إحدى هذه التضحيات وجود فترة من الاستسلام والخضوع لحكم يتميز بطابع فاشي نازي شيوعي وإن كان نظام حكومة الحزب الواحد الدكتاتوري لم يصل إلى أقصى حدود التطرف الاستبدادي ، على أن ما حدث بعد ذلك على الرغم من هذا كان أمرا يلفت النظر وكان في الوقت نفسه أمرا متوقعا . فقد انتقلت تركيا أثناء انتخاباتها العامة التي أجريت عام ١٩٥٠ من نظام حكم الحزب الواحد إلى نظام حكم الحزبين ، بمحض رضا الشعب واختياره دون أى عنف وبدون إراقة أية قطرة من دماؤه وقبل الحزب الذي ظل يفتكر الحكم في تركيا فترة طويلة من الزمن — قبل إرادة الناخبين حين رأى أن رجحان اصوات المنافسين يعنى ظهور إشارة له بأن ينسحب باعتباره الحزب الحاكم من على مسرح الحكم ليدع مكانه للمعارضة بدلا منه وظهرت المعارضة من جانبها روحا دستورية بمائلة فلم تسيء استخدام سلطتها باتخاذ أية إجراءات انتقامية ضد منافسيها الذين احترموا نتائج الانتخابات الحرة وافسحوا الطريق عن طواعيه لهؤلاء الذين كل النصر هاماتهم في معركة الانتخاب .

ويبدو كما لو أن النظم القريية للحكم الدستوري البرلماني قد تأصلت في تركيا وهي التي حاول رجال السياسة فيها خلال عدة اجيال ألا يتأثروا بالغرب إلا في ميدان فنونه العسكرية فقط . وما دام الأمر كذلك — أى تأثر تركيا بالغرب في أكثر من ميدان الفنون العسكرية — فإن هذا يعنى وجود نصر ملحوظ لمعنى العدالة والاعتدال في ميدان السياسة ، وهو المعنى الذى نعتقد نحن معشر الغربيين بأنه إحدى الهدايا الطيبة التي إستطاع الغرب أن يقدمها للعالم .

وقد راينا ابتداء من عام ١٩١٧ أن كثيرا من الشعوب التي لم تأخذ إلا بجزء من الديمقراطية او التي كانت ديموقراطيتها ديموقراطية اسمية فقط ، راينا كيف ان هذه الشعوب قد ضلت طريقها ف وقعت اسيرة أشكال متعددة من اشكال الحكم الاستبدادي .

وعلى الرغم من أن بعض هذه الشعوب كالشعب الإيطالي والألماني مثلاً يعتبران من أعضاء الأسرة الغربية الأصلية إلا أنهما لم يأخذا بما تقضى به حضارتنا الغربية وهكذا نستطيع أن نعتبر أن انتصار الروح الدستورية الغربية في الانتخابات التركية التي أجريت عام ١٩٥٠ إنما تمثل معلماً من معالم الطريق التي قد ترمز إلى تحول المد السياسي في العالم بصفة عامة .

وبجانب ذلك توجد بالطبع أفكار ونظم غربية أخرى مشكوك في صحتها وفي مدى ما يمكن أن تؤديه من خير ، ولا شك في أن فكرة القومية الغربية عندنا واحدة من هذه الأفكار .

وقد تأثر الأتراك ، كما تأثر عدد كبير من الشعوب الإسلامية الأخرى بعدوى فكرة القومية هذه ، وكان تأثرها بها تأثراً قوياً يشبه تأثرهم ببعض أفكار غربية أخرى منها ما هو نافع ومفيد ومنها ما هو ضار وخطير . وهنا نتساءل : ماذا ستكون نتيجة إدخال مثل هذه المثل السياسية الغربية التي لا تلقى حماساً كبيراً في العالم الإسلامي الذي تنص تقاليد السلفية على أن جميع المسلمين إخوة بفضل ما بينهم من دين مشترك بصرف النظر عن اختلاف الجنس واللغة والعادات . غير أن هذه التقاليد الإسلامية التي تدعو إلى إخوة الإنسان في عالم قضي. التقدم التكنولوجي الغربي فيه على عنصر المسافة المكانية والذي تتنافس اليوم على أرضه طريقنا الحياة الغربية والروسية لإخضاع البشرية كلها لواحدة منهما ، هذه التقاليد الإسلامية التي تنادى بإخوة الإنسان يبدو أنها ستكون المثل العليا التي تعتبر أفضل بالنسبة لتلبية حاجات العصر الاجتماعية من التقاليد الغربية التي تنادى بوجود استقلال ذي سيادة لمجموعة من قوميات منفصلة بعضها عن بعض . وفي هذا الموقف الجديد الذي نجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد تقسم داخلياً إلى حوالى أربعين دولة قومية كل منها ذات سيادة مستقلة ، في هذا الموقف يجد هذا المجتمع نفسه مهدداً بسقوط منزله الذي

انقسم على نفسه إلا أن مكانة الغرب اليوم في العالم لا تزال مكانة ينظر إليها باحترام وتبجلة مما يجعل عدوى مرض القومية عنده تنتقل منه إلى غيره .

ولكن هناك أملا في أن توقف قوة الشعور الإسلامى وإيمان المسلمين بتقاليدهم التى تدعو إلى وحدة الانسان انتشار هذا الوباء السياسى الغربى داخل العالم الاسلامى على الأقل . ولا جدال في أن الوحدة الاجتماعية والسياسية على المستوى العالمى قد أصبحت اليوم أكثر ضرورة واهمية بالنسبة لنا كبشر وبالنسبة لإنقاذ حياتنا ووجودنا في هذا العصر الذرى مما كانت عليه في أى وقت مضى .

لقد أدى الشعب التركى بلا شك في ظل أتاتورك إلى العالم الإسلامى كله خدمة جليلة حين حاول حل المسألة الغربية، باتخاذ طريقة الحياة الغربية الحديثة دون أى تحفظ ، بما في ذلك نظام القومية وغيره من النظم الغربية الأخرى . ولكن الدول الإسلامية الأخرى لا تحتاج بالضرورة إلى اقتفاء أثر الرواد الأتراك اقتفاء حرفياً .

فهنالك مثلاً دول إسلامية تتحدث اللغة العربية وهى دول تسودها لغة مشتركة تعدد لهجاتها ، ولكنها تكتب بلغة فصحي ذات مستوى أدبى واحد وتمتد من الشاطئ الأطلنطى فى مراكش إلى الحدود الغربية فى إيران ومن حلب والموصل شمالاً إلى الخرطوم وعدن ومسقط وبنجار جنوباً . ويتم توزيع الكتب والصحف التى تنشر فى القاهرة ودمشق وبيروت فى كل هذه المنطقة الفسيحة بل وفى غيرها لأن العربية تعتبر لغة الدين حتى فى الدولة الإسلامية التى لا تعد اللغة العربية فيها لغة الحياة اليومية .

وهنا نريد أن نتساءل . هل من الضرورة حقاً ان ينقسم العالم الذى يتحدث باللغة العربية كما انقسمت الامبراطورية الأسبانية السابقة لسوء الحظ فى الأمريكتين — فنقول هل من الضرورى ان ينقسم هذا العالم إلى حوالى عشرين

دولة قومية مستقلة تعيش في اجزاء كبيرة مترابطة ترابطاً شديداً كما حدث في الغرب .

إن هذا هو الجانب العكسي لحضارتنا الغربية الذي كان من المحزن فعلاً بالنسبة للشعوب التي تتحدث العربية ان تأخذ به بكل حرفيته .

ثم تبقى بعد ذلك عند جميع اطراف العالم الإسلامى في افريقيا الاستوائية وفي الهند ، والصين والاتحاد السوفيتى . . . تبقى الاقليات الإسلامية متناثرة بين اغليات غير إسلامية وهذه الاقليات لن تستطيع ان تجمع كل اعضائها في تكتلات متماسكة جغرافياً حتى تتمكن من تشكيل دول متعددة كل منها ذات سيادة مستقلة وهذه الاقليات الإسلامية المتناثرة والتي يقدر عدد افرادها بملايين كثيرة ليست — كما سنرى — جاليات الاقلية الوحيدة من نوعها .

ولا يعتبر انجيل نوبه القومية الغربية بالنسبة لجاليات متناثرة مثل هذه الجاليات دعوة إلى حياة جديدة بل هو حكم بالإعدام عليها . ولناخذ حالة الجالية الإسلامية الكبيرة التي تعيش هنا وهناك على شبه القارة الهندية فقد حدث في عام ١٩٤٧ حين انسحبت بريطانيا من الهند — حدث لسوء الحظ ان الروح الغربية للنظام القومى لم تتبع النموذج الطيب الذى وضعه ممثلو الدولة الغربية المعينة التي ادخلت الايديولوجية الغربية إلى الهند . فقد بقى نظام قوميتنا الغربية في الهند بعد مغادرة الإداريين البريطانيين بقى ليجعل من شبه القارة الهندية المتحدة دولتين متنافرتين : دولة هندية هندوكية واخرى باكستانية مسلمة .

وهذا الانقسام او التصدع كان لسوء الحظ كارثة اصيب بها شبه القارة فالاتحاد الهندي الهندوكى شيء اقل من الهند المتحدة والباكستان دولة تتكون من بقايا طائفتين قسمت كلا منهما عن الآخر مساحة الاتحاد الهندي كله . وحتى بعد عملية « الغريزة » وجد الملايين من الهندوس والمسلمين الهنود انفسهم يعيشون في مكان غير طبعى من الحدود الجديدة كما وجدوا انفسهم امام اختبار حرج فإما أن يتركوا بيوتهم وأما أن يعيشوا تحت حكم حكومة لا تكن لهم حياً ولا عطقاً .

والباكستانيين اليوم دولة قومية خاصة بهم ذات مساحة واسعة مكتظة بالسكان إلا أن على هؤلاء المسلمين الهنود أن يدفعوا ثمننا لهذا الوضع أغلى مما دفعه الأتراك فإن هؤلاء الباكستانيين قد اكتشفوا بعد أن مروا بالتجربة عاقبة اتباعهم نظامنا الغربي فيما يتعلق بمسألة الأفكار القومية كما اكتشفوا كذلك عيوبها ومشاكلها .

وهكذا تعلم الباكستانيون كما تعلم الأتراك الدروس السياسية التي كانت لها قيمة لا بالنسبة للشعوب الإسلامية فحسب بل بالنسبة أيضا للعالم ككل .

الفصل الثالث

الهند والغرب

في صراع الهند مع الغرب واحتكاكها به ظهرت تجربة لم يشارك الهند فيها أى مجتمع آخر من مجتمعات العالم . لأن الهند فى حد ذاتها عالم متكامل يشبه فى ضخامته وأهميته عالمنا الغربى . وهى — أى الهند — المجتمع الشاسع الوحيد غير الغربى الذى لم يتعرض فقط لهجوم الأسلحة الغربية أو ضربها له بل غمرته هذه الأسلحة وتغلبت عليه تغلباً شاملاً ولم تنتصر عليه هذه الأسلحة ويخضع لها فقط ، بل حكمته بعد ذلك جماعات من الإداريين الغربيين واستمر هذا الحكم الغربى فى البنغال قرابة مائتى عام ، كما استمر فى البنجاب فترة تجاوزت المائة .

ولذلك كانت تجربة الهند مع الغرب تجربة مريرة ومهينة أكثر من تجربة الصين أو تركيا معه بل وأكثر كثيراً من روسيا أو اليابان معه أيضاً .

ولكن — الهند نظراً لهذا السبب نفسه — كانت أقرب اتصالاً وأقوى ألفة مع الغرب وكانت الاتصالات الشخصية بين الهند وبين الغربيين أكثر إلى حد كبير من الاتصالات الشخصية بين شعوب الدول السابقة وبين الغربيين . دليل ان تأثير الغرب قد تسلل إلى روح الهند أعمق من غيرها .

وربما لم تكن الهند لتعرض للهزيمة التى تلقتها على يد الأسلحة الغربية لو لم تكن قد تعرضت من قبل لهزيمة أسلحة المغول لها . فلقد عرف القاريء سلفاً أن المغول قد وصلوا إلى الهند قبل سنوات قليلة من وصول البرتغاليين لأول مرة إليها عام ١٩٤٨ . وهؤلاء البرتغاليون يمثلون أول موجة من موجات البحارة الغربيين .

والمغول المسلمون قد كانوا أسبق من الغربيين البريطانيين في أن يجعلوا من الهند كلها تقريباً دولة تعيش في ظل حكومة واحدة . على أنه ربما لم يكن لفترة سلام عهد المغول في الهند نفس الفاعلية والآثر الذي كان للسلام الذي جاء به البريطانيون في أحسن فتراتهم وهم خلفاء المغول في الهند ولكن هذا السلام في عهد المغول قد استمر نفس الفترة الطويلة التي استمرها السلام في عهد البريطانيين . حتى إذا ماتحطم هذا السلام المغولي وانهار في غضون القرن الثامن عشر خلف وراءه أشياء سهلت على من أتى بعدهم من البريطانيين عملية لم شتات هذه الامبراطورية المغولية . فقد استمر مثلاً نظام الإدارة الخاصة بحماية ضرائب الأرض ، استمر بقوة الدفع خلال فترة الفوضى التي سادت الهند في القرن الثامن عشر .

وقد ظل هذا النظام قائماً لأنه أصبح جزءاً من صميم عادات الهند وتقاليدها وكان تكيف الهنود عقولهم وأرواحهم — للعيش بقوة العادة داخل امبراطورية فرضها عليهم أجنب — كان هذا أيضاً من غير شك من بين الأشياء التي أحدثها المغول في الهند ثم ظلت قائمة بعدهم ليستفيد منها البريطانيون بعد ذلك .

ولقد حكم البريطانيون الذين خلفوا المغول في الهند على نظام حكم هؤلاء المغول الذي كان قائماً حتى ذلك الوقت — حكموا عليه بأن يلفظ آخر أنفاسه ، وذلك حين عمدوا إلى القيام بتغيير هذه العادات التي غرسها المغول في عقول الهنود . وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر فتح حكام الهند البريطانيون نافذة للعقول الهندية كي تطل منها على الغرب وذلك حين استبدلوا بالثقافة الهندوكية ثقافة غربية ومن ثم أتاحوا الفرصة أمام الهنود لكي يتعرفوا على أفكار حكامهم الانجليز التي تطبق في بريطانيا نفسها وهي الأفكار الخاصة بالحرية وأسلوب الحكم الدستوري البرلماني ومذهب القوميات . وتأثر الهنود بهذه التربية السياسية أيما تأثر . فدفعهم ذلك إلى أن يطالبوا من بحرية بلادهم كما دفع بريطانيا كذلك في النهاية إلى التسليم لهم — بنظام الحكم الذاتي الذي يتمتع به الانجليز داخل بلادهم .

واليوم نرى الهندوكيين الذين يحكمون الاتحاد الهندي بعد البريطانيين كما نرى المسلمين الذين يحكمون باكستان بعد البريطانيين نرى هؤلاء جميعاً يحكمون شبه القارة على النمط الذي كان أسلافهم من البريطانيين يحكمون به بريطانيا منذ عام ١٦٨٨ .

ولعل مما يسترعى الملاحظة والاعتبار هنا هو ان الحكام الهندوكيين الذين يحكمون اليوم الجزء الأكبر من شبه القارة كانوا سيفضلون كما قبلوا تطبيق نظام الحكم على النمط الغربي الذي وضعه أسامبا الغزاة الأجانب . وهكذا حدث لأول مرة في تاريخ الهند منذ بداية الفتح المغولي لها ، أي منذ ثمانمائة وتسعمائة عام (أن يصبح الهندوكيون سادة بلادهم داخل المناطق التي يشملها الاتحاد الهندي اليوم) . وحين كان الحكم المغولي في الهند يلاظ آخر أنفاسه في خلال القرن الثامن عشر مرت لحظات كان يبدو فيها كما لو أن إقامة دولة هندوكية تخاف الحكم المغولي مباشرة أمر وشيك الوقوع .

وفي فترة التدافع من أجل الحصول على ميراث المغول في القرن الثامن عشر بدا كما لو أن دولة المارثا الهندوكية على وشك أن تستأثر بنصيب الأسد من أسلاب المغول . وهذه المحاولة التي شهدتها القرن الثامن عشر وأعني بها محاولة نقل سلطة الحكم التي كانت في أيدي المغول إلى أيدي المارثا الهندوكي لم يقيض لها النجاح نتيجة تدخل الغربيين الذين كانوا أكثر قوة . وبالرغم من ذلك فإن إقامة حكم بريطاني في الهند بدلا من حكم مارثي لم يوقف حركة البعث واليقظة التي سادت الهندوكيين داخل بلادهم .

وحين انتهت السياسة العسكرية التي اتبعتها حركة البعث الهندوكية في القرن الثامن عشر إلى هزيمة عسكرية انحرف تيار الطاقة الهندوكية إلى اتجاه آخر . وأخذ الهندوكيون أثناء الحكم البريطاني خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، كما كان الحال أيضاً أثناء فترة الانتقال من حكم المغول إلى حكم البريطانيين — أخذ هؤلاء الهندوكيون على الدوام يكسبون كل يوم قوة ونفوذاً في الهند ، إلا أنهم استطاعوا ان يكسبوا هذه القوة فعلا في ظل الحكم البريطاني لا بقوة السلاح

بل بفضل قوة إجادتهم للأدلوب الغربي في ميادين التربية والإدارة والقانون
وهي العناصر التي كانت تمثل مفاتيح القوة في عالم أخذ يصطبغ بالنظام الغربي .
وكان الهندوس أسرع من المسلمين في أن يلاحظوا ويتهزوا الفرص التي
أتحت أثناء العصر الغربي في تاريخ الهند أمام الهنود الذين أصلوا فنون السلام
على نحو فعال . فالهندوكيون — وهم في ذلك يختلفون عن المسلمين — لم تكن
ذكرياتهم عن القوة والمجد اللذين انتهى عهدهما حديثاً من نوع الذكريات التي
تثبطهم بحيث تجعلهم يميلون للتفكير والتأمل — بلا جدوى — في ماضٍ
انتهى ومات بدلاً من التفكير في المستقبل . ولذلك فإن ميزان القوى الذي بدأ
يميل في غير صالح المسلمين خلال القرن الثامن عشر بما فيه من فوضى قد ظل
كذلك في غير صالحهم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أثناء فترة السلام
البريطاني التي اهتمت بالقدرات الفكرية بدلاً من القوة العسكرية كوسيلة من
وسائل التفوق في الصراع المستمر بين الهندوس والمسلمين الهنود الذين كانوا
في ذلك الوقت أشبه برعايا التاج البريطاني .

واضطر الهنود المسلمون في النهاية إلى اقتفاء أثر اخوانهم الهندوكيين فاتجهوا
هم الآخرين إلى العمل على إجادة فنون الحضارة الغربية ، غير أن المسلمين الهنود
أصروا حين أصبح تصفية الحكم البريطاني في الهند قاب قوسين أو أدنى ، على أن
انتقال حكم الهند من أيدي البريطانيين إلى أيدي الهنود يجب أن يصاحبه تقسيم
الهند إلى دولتين إحداهما مسلمة والأخرى هندوكية . وكان هذا الإصرار على
التقسيم من جانب المسلمين إنما يعنى اعترافاً بحقيقة هي إنه كان يوجد منذ أيام
المغول العظام اضطراب في الهنود دخل دولة إسلامية هندوكية مشتركة تضم
شبه القارة كلها — كانوا يخافون من أن تطغى عليهم الأغلبية الهندوكية من السكان .
وعلى الرغم من أن الباكستان التي يسودها المسلمون قد انفصلت عن الاتحاد
الهندي الذي يسوده الهندوكيون في عام ١٩٤٧ فإن هدف كل هاتين الدولتين
اللتين خلفتا الامبراطورية البريطانية في الهند يكاد يكون واحداً . ففي المرحلة
الأولى من تاريخ كل منهما بعد الانفصال تركزت السطة في كلتا الدولتين في

أيدي العناصر الوطنية ذات — الترية والثقافة الغربيتين والتي تستلهم دائماً في حياتها مثلاً غربية . ولو بقيت هذه العناصر الهندوكية والباكستانية وكذلك السيلانية تتحكم في السلطة داخل بلادها لكنا قد رأينا رجال السياسة في هذه الدولة الآسيوية يستخدمون نفوذهم على مواطنيهم لإقناعهم بأن يظلوا أعضاء داخل أسرة عالمنا الحر . ولا شك — كذلك — في أن نفس هؤلاء الساسة الآسيويين سيظلون يطالبون ألا يكون في العالم الحر الذي سيصبح وطناً مشتركاً لكل من الشعوب الغربية والآسيوية تمييز ظالم كره ضد الأعضاء الآسيويين في الأسرة ، وعلينا معشر الأعضاء الغربيين أن نؤكد هذا المعنى للأعضاء الآسيويين إذا كنا جادين فعلاً وصادقين في تسمية عالمنا بالعالم الحر .

ولو لم نفشل نحن أعضاء العالم الحر الغربيين في أن نكون مخلصين لمبادئنا في الحرية التي أعلنها لكان هناك أمل في أن نرى حكام الهند وباكستان وسيلان وهم الذين تدربوا على النظم الغربية وأصبحت لهم عقليات غربية — أقول كان هناك أمل في أن نرى هؤلاء حريصين على مشاركتنا ومزاملتنا في أسرة واحدة . وقد حدث من سنين فقط من الحركة التي قامت بها بريطانيا لتسوية مشاكل آسيا مع الغرب حين أتمت عملية تصفية الحكم البريطاني في كل مكان من سيلان وباكستان والاتحاد الهندي وبورما ، حدث أن انتقل الصينيون الذين يمثلون الربع الثاني من الربعين الآسيويين من الجنس البشري من المعسكر الغربي إلى المعسكر الروسي .

ولو أن عالمنا الغربي بعد أن فقد شبه القارة الصينية قد فقد كذلك صداقة شبه القارة الهندية لكان الغرب قد ضاع منه لصالح روسيا معظم العالم القديم فيما عدا رأس جسر في كل من أوروبا الغربية وإفريقيا .

وقد يكون هذا حداً حاسماً في الصراع الذي يقوم اليوم من أجل القوة بين العالم الحر وعالم الدول الشيوعية . ولا شك في أن الاتحاد الهندي الذي يضم معظم شبه القارة الهندية يمثل قاعدة قوية في العالم المنتقم اليوم وهو العالم الذي

تتناقش فيه الولايات المتحدة وحلفاؤها مع الاتحاد السوفيتي وحلفائه من اجل
كسب السيطرة العالمية ..

... ونحب ان نتساءل الان ، ولتساؤلنا مبرراته ، إلى اى اتجاه سيميل
الهندوكيون الذين يمثلون خمس عدد الجنس البشرى ؟ والإجابة على هذا السؤال
او التساؤل تقتضينا ان ندرس اولا بعض الاعتبارات التى تؤكد احتمال استمراره
اتجاه الهندوس وجهتنا الغربية او تنفى ذلك .

ولنأخذ الجانب المأمول اولا فالأمر يبدو اليوم وكأن العلاقات الشخصية
بين الهند والغريين قد اصبحت اكثر قرباً ووداً مما كانت عليه من قبل . فكثير
من ابناء المملكة المتحدة لا بد وأنهم مروا - كما مر المؤلف - كثيراً منذ عام
١٩٤٧ بهذه التجربة وهى دهشتهم وتأثرهم بروح الصداقة التى يبديها الهندوس
للشعب البريطانى .

وقد حدث هذا معى شخصياً عدة مرات فى دول اجنية حيث كان المراقبون
المحليون يشاهدون مدى ما اصبحت عليه العلاقات الهندية البريطانية الآن . وقد
وجدت كثيراً من الجنود الذين يتمتعون بمكانة ممتازة فى دول اجنية يظهرون
من الروح الطيبة ما يدل على ان العداء البغيض السابق بينهم وبين البريطانيين
قد انتهى الان من جانبهم .

وعندما وفت بريطانيا بوعدا وفاء كاملاً فيما يتعلق بتصفية حكمها فى الهند
دهش الهند لانهم ربما كانوا غير واثقين تماماً من أن بريطانيا تنوى الوفاء
بوعداها فى يوم من الأيام بالنسبة للهند . ولذلك ظهر تحول فى شعور الهندوس
من العداء إلى الصداقة حين اكدت بريطانيا مدى حرصها على المحافظة على كراتها
التي قطعها على نفسها ، وكان رائعا من الهندوس ان يظهروا بوضوح صداقتهم
الجديدة للبريطانيين وهى التغير الطيب فى علاقات كل من الهندوس والبريطانيين
بعضهم تجاه بعض يعتبر من غير شك كسباً بالنسبة للعالم الحر كله .

وعلى انا أن تؤكد هنا أن العداء بين الهند وبين العالم الغربى الذى كانت تمثله

بريطانيا بالنسبة للهند إنما يرجع إلى تاريخ أبعد من تاريخ بداية حركة الاستقلال الهندية بل وإلى أبعد من تاريخ الصراع الدامي الذي شهدته عام ١٨٥٧ فهو يرجع إلى تاريخ الفترة التي قام فيها البريطانيون بالاصلاحيات الإدارية في الهند في ثمانينيات القرن الثامن عشر ويعتبر ظهور هذا العداء في العلاقات بين الهنود والشعب البريطاني نتيجة لهذه الاصلاحيات واحداً من مهازل التاريخ وسخرياته غير أن هناك ارتباطاً عميقاً وأصيلاً بين الحادثتين فإن حكام الهند البريطانيين الذين كانوا لا يزالون حديثي العهد في القرن الثامن عشر بالهند كانوا أحراراً ومتساهلين مع رعاياهم الهنود الجدد حرية وتساهلاً لهما معنيان فقد كانوا لا يراعون ذمة في استخدام سلطتهم السياسية لنهب الهنود واستعمال الظلم معهم وكانوا في الوقت نفسه غير ممنوعين ولا محرمات عليهم الاتصال بهؤلاء الهنود في جوهر من العلاقات الاجتماعية فقد كانت لهم اتصالاتهم برعاياهم الهنود خارج ساعات العمل فضلاً عن التقائهم بهم أثناء العمل في ظل قواعد مختلفة .

وفي القرن الثامن عشر كان المستوطنون البريطانيون الذين يعيشون في الهند ممن يتميزون عن غيرهم بأنهم أكثر وعياً وثقافة وكان هذا الفريق يستمتع يومذاك مع زملائه من الهنود بهواية التعارض بالشعر الفارسي . كذلك كان الهنود الذين هم أكثر حيوية ونشاطاً يحسون بالمتعة الكبيرة حين يتعرفون على فنون الرياضة الانجليزية .

وإذا ما تطلعنا إلى صورة زوفاني « مباراة الديكة » التي أقامها كولونيل مور دانت في لوكناو ، إذا ما تطلعنا إلى هذه الصورة التي رسمها زوفاني عام ١٧٨٦ رأيناها تقص على من يشاهدها لأول وهلة كيف كان اللقاء طيباً بين الهندي والبريطاني في ذلك الوقت فلقد كان الحكام البريطانيون في الهند أثناء الجيل الأول يسلكون إلى حد كبير نفس السلوك الذي كان عليه الهندوس والمسلمون السابقون . فقد كان في هؤلاء البريطانيين عيوب البشر ومن ثم لم يحبوا في عزلة الآلهة ، ولكن حين عزم المصلحون البريطانيون الذين قاموا بإصلاح الحكم البريطاني في الهند ، وهم الذين قرروا القضاء فعلاً على الفساد ونجحوا في هذه

المهمة الصعبة ، حين عزم هؤلاء المصلحون على تحقيق هذا البرنامج الاصلاحى عمدوا فى الوقت نفسه إلى القضاء على مظاهر الود والالفة بين البريطانيين والهنود لانهم رأوا أنه لا يمكن اقناع البريطانيين بأن يكونوا فوق مستوى البشر من حيث الاستقامة والعدالة فى معاملتهم مع رعاياهم الهنود مالم يشعروا ويسلكوا سلوك الآلهة مع الهنود الذين هم أدنى منهم مرتبة وشأنا .

واليوم وبعد أن أصبح الهنود يحكمون أنفسهم بأنفسهم لم يعد ثمة وجود لمشكلة اللورد كورنيلز « KORNILLIS » التى كانت تنحصر فى البحث عن طريقة تجعل الاداريين الغربيين فى الهند يسلكون سلوكا طيبا — بعد أن حدث ذلك ، لم يعد يوجد شيء يمنع العلاقات بين الهنود والغربيين من أن تصبح علاقات وثيقة طيبة فى نفس الوقت وهذا هو التغيير المتوقع إلى أحسن بقدر ما أمكن أن يكون ولكن إلى أى مدى يمكن أن يسير هذا التغيير ؟

آلاف قليلة من ٥٠ مليون هندي قد التقت أو تلتقى بالرجل الغربى أو حتى تلتقى بعدد من القلة الهندية التى تأثرت عقليتها بالفكر الغربى والتى تحكم الهند اليوم بدلا من الحكام البريطانيين . فما هو مستقبل هذه الطبقة الحاكمة الهندية الجديدة ؟ هل ستستطيع أن تحافظ على زعامتها التى تحتفظ بها الآن ؟ وهل ستستطيع المثل الغربية التى تأصلت فى نفوس الأقلية عن طريق التعليم ... هل ستستطيع أن تحافظ على وجودها أمام التقاليد الهندوكية ؟

إن من الملاحظ أن أية أقلية تعيش فى العالم الهندوكى الكبير كانت ستسير إلى المدى الذى سارت إليه هذه الاقلية الحاكمة فى هضم الأفكار والمثل الغربية فى الوقت الذى تدرك فيه ما بين وجهتى النظر الغربية والهندوكية من اختلاف فيما يتعلق بطريقة الحياة عند كل منهما .

ولقد تناولنا فى الفصلين السابقين من هذا الكتاب وهما الفصلان اللذان عالجننا فيهما موضوع علاقة كل من روسيا والعالم الاسلامى بالغرب . تناولنا حالتين كان للجانب غير الغربى الذى احتك به الغرب عنصر أشترك فيه مع الغرب وهو عنصر لم يتوفر وجوده عند الهندوكية .

فعل الرغم من أن معاصرنا من الروس ليسوا أبناء للمسيحيين الغربيين إلا أنهم أبناء للمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ولذلك فإن كلا من الدين المسيحي والحضارة الاغريقية الرومانية وهما للذان تسليتهما الكنيسة المسيحية وحافظت عليهما ثم اسلتهما إلى الأجيال القادمة هنا اثنيان يعتبران جزئين في الأساس الروحي لدى الروس كما هما بالنسبة للغربيين كذلك فإن معاصرنا المسلمين هم أتباع دين يمكن أن يوصف بأنه كان حركة إصلاح للمسيحية المتزمته في عصره وتمثل الفلسفة والعلم الاغريقيين فيه عنصران من عناصر أسسه المعنوية تماما كما هو الحال عند الغرب .

والواقع أن الإنسان إذا نظر إلى العالم المعاصر ككل وحاول أن يجرى أوسع تحليل وادقه للأقسام الحضارية الأساسية فيه فسيجد نفسه يجمع المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس وكذلك المسيحيين الغربيين يجمعهم كاهم كأعضاء لمجتمع كبير واحد ، وهذا المجتمع الذي يستطيع الإنسان أن يميزه عن العالم الهندي وعالم الشرق الأقصى بلا فئة خاصة به ، ولما كان التراث الرحي لدى كل من المسلمين والمسيحيين تراثا مشتركا فإن من السهل أن يضع المجتمع المسيحي الإسلامي لفئة خاصة به تميزه عن المجتمع الهندوكي في الهند وعن المجتمع البوذي الكونفشيوسي في الشرق الأقصى .

وبهذه النظرة التي تضع الجنس الشرقي كله في الاعتبار يكاد يمتحن من ألقها ذلك التنوع المختلف بين المسلمين والمسيحيين فيما يتعاق بطريقتهم الحياة المشتركة بينهما . لأن هذا التنوع في طريقة الحياة بينهما يبدو قليل الأهمية جدا إذا قورن بالخصائص التي يشترك فيها أعضاء أسرة حضارية واحدة ، وأعني بهذه الأسرة المسلمين ، وحين نقابل طريقة الحياة المسيحية — الإسلامية ككل بطريقة الحياة الهندوكية أو بطريقة الحياة لدى شعوب الشرق الأقصى فإننا لا نكاد نرى اختلافات داخل الأسرة المسيحية — الإسلامية بين مسيحية الأرثوذكس الشرقيين والمسيحية الغربية ، أو بين هاتين المسيحتين والإسلام

ولكننا نعرف أن هذه الفروق الحضارية الصغيرة نسبياً تستطيع أن تؤدي إلى وجود قلق روحي عنيف في نفوس أبناء واحدة من هاتين الحضارتين الشقيقتين وذلك حين تتعرض هذه النفوس لدعاية روحية تقوم بها الشقيقة الأخرى في هذه الأسرة الواحدة .

ولعل التأثير الذي أحدثته الحضارة الغربية في نفوس الروس منذ عهد بطرس الأكبر يعتبر مثلاً واضحاً لذلك وكل منهما يمثل عضواً في أسرة حضارية واحدة وفي استطاعتنا أن نقرر مدى عنف التأثير الغربي على نفوس الروس سياسياً بانفجار الثورة التي وقعت عام ١٩١٧ وفيها ذابت حدة التوتر الروحي من تلقاء نفسها .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن هذا القلق الذي جاء نتيجة لتأثير الغرب على نفوس الروس والذي بدأ في هذه المظاهر العاطفية يعتبر من غير شك — أكثر اعتدالاً وهدوءاً من القلق الخفي المستور الذي أحدثته نفس هذه القوى الروحية الغربية الأجنبية على نفوس الهنود . هذا القلق الذي حدث بين الهنود قد خفف من حدته وعنفه عند الروس وجود عناصر اغريقية في تراثهم الفكري ، وهي العناصر التي تشترك فيها مع الحضارة الغربية الدخيلة بينما لا توجد مثل هذه العناصر في التراث الهندوكي ، لأن تراثهم ينتمي إلى أسرة حضارية مختلفة على عكس الروس والغربيين اللذين ينتمون إلى حضارة واحدة وهنا نتساءل ماذا يمكن أن يكون مصير هذا التوتر العنيف الحاد في الهند بين القوى الروحية الأجنبية عليها وبين قواها الروحية الهندوكية ؟

الواضح كما هو ظاهر أن هؤلاء الهندوس الذين اقتبسوا حضارتنا الغربية في شيء من التطرف عن طريق التكنولوجيا والعلم واللغة والأدب والظم الإدارية والقانونية ، الواضح أنهم قد كانوا أكثر نجاحاً من الروس في التوفيق بين طريقة حياتهم القومية وبين طريقة الحياة الغربية التي تعتبر أجنبية عليهم أكثر من الروس . ولكن الحدة والضعف والتوتر في نفوس الهندوس لا بد

وأنها أكثر شدة . وسواء أكان اليوم أو الغد فإنها ستجد لنفسها طريقا تذوب من خلاله ، ومهما يكن الخلاص الذى يسعى الهندوكيون لتحقيقه لأنفسهم فى النهاية فإنه يبدو واضحا أنه لا يمكن أن يكون خلاص أنفسهم من تأثير الحضارة الغربية . هو أن يفتحوا أبوابهم لنفوذ الشيوعية ، وتأثيرها لأن الشيوعية وهى كما سبق أن قلنا إنحراف غربى انتهجه روسيا المسيحية الأرثوذكسية السابقة هذه الشيوعية جزء لا يتجزأ من التراث الإغريقى كما هو الحال بالنسبة لطريقة الحياة الغربية فكل هذه التقاليد الحضارية تقاليد أجنبية على الروح الهندوكية .

على أن هناك عاملا يتمثل وجوده اليوم فى وضع الهند الاقتصادى والاجتماعى وهو عامل قد يفتح ثغرة فى حصن الهند أمام التغلغل الشيوعى ، هذا العامل الخطير هو تزايد ضغط عدد السكان فى الهند وعدم تناسب ذلك مع وسائل الحياة الضرورية فيها . وهذا أمر على جانب من الأهمية لأن نفس هذا العامل موجود أيضاً اليوم فى الصين واليابان والهند الصينية وأندونيسيا وبلاد أخرى فى منطقة الشرق الأوسط . ولقد أحدث تأثير الغرب فى كل هذه البلاد غير الغربية زيادة تقدمية فى الثروة الغذائية بفضل عمليات الرى وإدخال المحاصيل الجديدة وتطوير وسائل الزراعة . وهذه الزيادة فى الثروة الغذائية فى كل هذه البلاد وفى كل مرحلة من مراحل حياتها لم تنفق على رفع مستوى معيشة السكان المتزايدين تزايداً ثابتاً أو تدريجياً بل أنفقت على إبقاء أكبر عدد ممكن من السكان فى المستوى القديم وهو المستوى الذى كان ولا يزال أعلى قليلا من مستوى الفاقة . وما دامت التحسينات التقدمية فى ميدان الإنتاج^١ ستأتى معها حتماً إن أجلاً أو عاجلاً بقاعدة تناقص الغلة *Diminishing Returns* فإن مستوى هؤلاء المتضخمين سينهار حتماً ولن تكون هناك إلا الكارثة العظمى .

وفى وضع اقتصادى مثل هذا الوضع يحتمل أن تكسب الشيوعية لنفسها مكاناً فوق أرض الهند بل وفى دول أسيوية أخرى وهى كلها بلاد تعتبر

الشيوعية فيها غريبة عليها غرابة طريقة الحياة الغربية عليها ايضاً . والشيوعية برنامج آلى إجبارى شامل تقدمه كعلاج خداع للأزمة التى يعيش فيها الفلاحون الآسيريون التعساء ومن المضحك ان تنصنع مثلاً هؤلاء التعساء فى ازمتهن بأن يعالجوها على الطريقة الأمريكية .

وحين نتناول الحديث عن الشرق الأقصى فى الفصل التالى سنتحدث عن مشكلة السكان هذه ، ومدى تأثيرها على الصراع بين روسيا والغرب .

الفصل الرابع

الشرق الأقصى والغرب

في الفصل السابق من هذا الكتاب رأينا كيف أن طريقة الحياة الغربية كانت أجنبية على الهندوس أكثر منها على الروس والمسلمين ، ذلك لأن طريقة الحياة عند هؤلاء الهندوك لم يكن فيها من العناصر الإغريقية الدخيلة عليها سوى القليل والقليل جداً وهي العناصر التي تعتبر تراثاً عاماً ومشاركاً لكل من المسلمين والروس والغربيين .

والشرق الأقصى كذلك لا يزال أقل من العالم الهندوكي في اشتراكه مع الغرب وأصوله الحضارية . وليس ثمة جدال في أن نفوذ الفن الإغريقي وتأثيره في فن الشرق الأقصى أمر واضح وملحوظ ، غير أن هذا النفوذ الفني الإغريقي لم يصل إلى الشرق الأقصى إلا عن طريق الهند ، أي أنه قد جاء إليه في إطار دين هندي وأعني به البوذية التي سيطرت على عالم الشرق الأقصى ، كما سيطرت اليهودية والإسلام على العالم الإغريقي الروماني . وليس ثمة جدال أيضاً في أن العقيدة الإسلامية التي انتشرت في مساحة واسعة من الأراضي الهندية عن طريق الفتح قد تغلغت كذلك إلى داخل الأطراف الغربية من الصين بوسائل سلمية هذه المرة .

وهكذا كان نفوذ العالم الإغريقي قد لعب دوره فعلاً في الشرق الأقصى - وهو في هذا يشبه الهند - قبل أن يتعرض هذا الشرق لغزو الحضارة الغربية الحديثة له في القرن السادس عشر . ولكن هذا النفوذ الإغريقي السابق على النفوذ الغربي كان أقل أثراً في الشرق الأقصى منه في الهند . فقد كان من ضحالة التأثير بحيث لم يستطع أن يهيء الجو الملائم لزحف الحضارة الغربية ودخولها هذه المنطقة على الرغم من أن هذه الحضارة ليست سوى فرع من فروع العائلة الإغريقية .

وحين وصل البرتغاليون وهم أول جماعة من أسرة الحضارة الغربية وفدت إلى هذه المنطقة إلى شواطئ الصين واليابان في القرن السادس عشر نزلوا هناك وكانهم ضيوف أتوا من كوكب آخر .

وكان تأثير هذه الزيارة الغربية الأولى على مشاعر شعوب شرق الأقصى مضطربا ومختلطا فقد كان مزيجا غير ثابت من الإعجاب والنفور ، إلا أن الشعور بالنفور خلال هذه المرحلة الأولى من الاحتكاك هو الشغور الذي ساد شعوب هذه المنطقة في النهاية ، ودفع بموجة الغزاة الغربيين هذه التي ظهرت خلال القرن السادس عشر دفع بها إلى المحيط الذي امتدت منه فجأة على شواطئ هذا الشرق الأقصى ، فأغلقت كل من اليابان وكوريا والصين أبوابها في وجهها وقررت أن تعيش قدر ما تستطيع أشبه بـ « بملكة مغلقة » .

ولسكن هذا كله لم يكن الفصل الأخير في القصة فيعد أن تم طرد هؤلاء الغزاة الغربيين من اليابان في القرن السابع عشر وتم طردهم كذلك من الصين في القرن الثامن عشر عادوا إلى الغزو مرة أخرى في القرن التاسع عشر ونجحوا هذه المرة الثانية في إدخال طريق الحياة الغربية إلى بلاد الشرق الأقصى ، كما كانوا قد نجحوا في ذلك الوقت أيضا في إدخالها كذلك إلى روسيا والهند وبدأوا يعملون على إدخالها إلى بلاد العالم الإسلامي .

وهنا نتساءل : ما هي الفروق التي يمكن أن نراها في الموقف ؟ وأعن بها الفروق التي تعزل سبب الاختلاف في نتيجة هاتين المحاولتين القريبتين المتعاقبتين اللتين كان هدفهما السيطرة على عقول شعوب الشرق الأقصى ؟

والجواب هو أن الفرق الأول — وهو فرق واضح — يتمثل في التقدم التكنولوجي ، فالسفن الغربية وكذلك الأسلحة الغربية لم تكن في القرن السادس عشر أكثر تفوقا من سفن الشرق الأقصى وأسلحته إلى الحد الذي يجعل هؤلاء الغزاة الغربيين اليد العليا في الموقف وهكذا يثبت شعوب الشرق الأقصى في هذه الجولة الأولى من جولات الصراع بين الحضارتين سيادة

الموقف ، ولذلك حين قررت هذه الشعوب أنها تريد أن تقطع العلاقات بينها وبين الغرب لم يكن هؤلاء الغربيون الأجانب من القوة بحيث يستطيعون أن يقاوموا هذه الإرادة .

ولكن هؤلاء الغربيين حين ظموا مرة ثانية قرب شواطئ الصين واليابان في القرن التاسع عشر كانت كفتهم في ميزان القوى قد ثقلت ، ففي هذا الوقت كانت الأسلحة الصينية واليابانية لا تزال على المستوى الذي كانت عليه منذ مائتي عام بينما كان الغربيون قد قاموا في نفس هذا الوقت بثورتهم الصناعية وعادوا الآن مزودين بالأسلحة الجديدة التي لم يكن لشعوب الشرق الأقصى قبلها . ومن ثم كان لابد من فتح منطقة الشرق الأقصى أمام النفوذ الغربي بطريقة أو بأخرى .

وسرعان ما وجدت مملكة الشرق الأقصى المغلقة التي حاولت ان تقف أمام التحدي التكنولوجي الغربي الجديد بتجاهله ، ابوابها تتحطم أمام مدافع الغرب الثقيلة ، ولم يصبح امامها من اختيار سوى ان تترك الغزاة الغربيين يتواجدون على مقربة منها للتعلم منهم فنون اسلحة القرن التاسع عشر ، ولم يكن من المستطاع ان يحدث ذلك ما لم يفتح الشرق الأقصى ابوابه عن طواعية أمام تكنولوجيا الغرب الحديثة قبل ان يفرض المحاربون الغربيون هذا الدخول بالقوة .

وكان اليابانيون أكثر سرعة وحماساً من الصينيين في قبول وتنفيذ هذه السياسة الوحيدة التي كانت ترمي إلى إثبات وجودهم والمحافظة على كياناتهم أمام الغرب بتعليمهم طريقة استخدام أحدث أنواع الأسلحة ومناعتها . إلا ان الصينيين عملوا في الوقت المناسب أيضاً على إنقاذ انفسهم من المصير الذي وقعت فيه الهند أي من التبعية للدول الغربية .

ومهما كان من امر فإن هذه الأجزاء لا تمثل القصة كلها . . فبينما قد يفسر لنا التفوق التكنولوجي الذي امتاز به الغرب على الشرق الأقصى بفضل ثورته الصناعية السبب في ان شعوب هذه المنطقة قد وجدت نفسها مضطرة إلى أن

تفتح أبوابها للحضارة الغربية في القرن التاسع عشر فإنه ما زال علينا أن نجري البحث عن تفسير السبب الخامس الذي تسلمت به شعوب هذه المنطقة لطرد الوافدين الغربيين من أقاليمهم وقطع علاقاتهم بالعالم الغربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وسيكون إزالة النقاب عن حقيقة سر هذا الخامس في الاحتكاك الأول الذي حدث بين الشرق الأقصى والغرب أمراً مدهشاً للغاية ذلك لأن هؤلاء الغربيين حين ظهروا في أفق شعوب الشرق الأقصى للمرة الأولى في القرن السادس عشر أظهرت هذه الشعوب أنها أكثر استعداداً للترحيب بهم بالرغم من أنهم كانوا لا يزالون يومذاك أجانب وغرباء بمحولين لهم، بل وأظهروا كذلك أنهم أكثر استعداداً لانتهاج طريقة حياتهم بما كانوا عليه بعد ذلك بثلاثمائة عام حين عاد هؤلاء الغربيون مرة ثانية تصحبهم سمعتهم السيئة التي ألحقوها بأنفسهم عند زيارتهم الأولى في القرن السادس عشر. ولكن هذا الصراع الثاني الذي رفضت فيه شعوب الشرق الأقصى عمداً أن تدخل معركته قد انتهى بدخول أسلوب الحياة الغربي إلى بلاد هذه الشعوب، ويتم انتهاء الصراع الأول — كما عرفنا — وهو الذي بدأ بالترحيب من جانب شعوب الشرق الأقصى — انتهى بالفشل الذريع للغرب فما هو إذن مفتاح هذا الاختلاف البين بين هذين الفصلين من فصول دراما صراع الشرق الأقصى مع الغرب؟

الاختلاف أو الفرق في رد الفعل عند شعوب الشرق الأقصى بالنسبة للحضارة الغربية في كل من الموقفين لم يكن قائماً على تغلب الهوى، بل كان رد الفعل في كل منهما يختلف عن الآخر. ذلك لأن التحدي الذي كانوا يواجهون به من جهة الغرب في الموقف الأول — لم يكن يشبه التحدي الذي ووجهوا به في المرة الثانية فقد كانت الحضارة القومية في القرن التاسع عشر تقدم نفسها أساساً على إنها تكنولوجية جديدة غربية بينما كانت تقدم نفسها خلال القرن السادس عشر على أنها دين جديد غريب.

وهذا الاختلاف الذي أظهرته الحضارة الغربية في شكلها في كل من

الموقفين يفسر لنا في سهولة سر الاختلاف في رد الفعل الذي كانت عليه شعوب الشرق الأقصى قلباً وعقلاً أمام الغزو الغربي لبلادهم في كل من المراتين الأولى والثانية . فالتكنولوجية الجديدة الغربية ليس من الصعب قبولها على عكس الدين الجديد للغرب ، فمن الواضح أن التكنولوجيا تلعب دورها على سطح الحياة . ومن ثم يبدو إنه من الممكن عملياً أن يقتبس الإنسان أية تكنولوجيا أجنبية دون أن يعرض نفسه لخطر عجزه عن الاحتفاظ بروحه .

وهذا الرأي القائل بأن الإنسان حين يأخذ تكنولوجيا أجنبية إنما يعرض نفسه لخطر محدد فقط إنما هو رأي ينقصه حسن التقدير فالواقع — كما يبدو — أن كل عنصر من العناصر المختلفة التي يتكون منها النموذج الحضارى المقتبس يرتبط بالآخر بعلاقة عميقة وثيقة بحيث أن أثر تخلى أى إنسان عن تكنولوجيته التقليدية واتخاذ بدلا منها تكنولوجيا أجنبية لا يكون قاصرا على السطح التكنولوجى للحياة فقط ، بل انه يظل يتسرب تدريجيا إلى الأعماق حتى تنهار كل حضارة هذا الإنسان التقليدية ، وتجد الحضارة الأجنبية لنفسها شيئا فشيئا منفذاً عن طريق الفجوة التي أحدثها الاسفين المتسرب للتكنولوجيا الأجنبية في الحلقة الخارجية لخطوط الدفاع الحضارى .

وإننا نرى اليوم في كل من الصين وكوريا واليابان ، أى بعد قرن أو أكثر من قرن من التاريخ الذى بدأت فيه تكنولوجيا الغرب الحديثة تتسرب لأول مرة إلى هذه البلاد ، أقول نستطيع أن نرى التأثيرات الثورية النهائية على كل حضارتهم تحدث اليوم أمام أعيننا فالزمن — على كل حال — هو صاحب الدور الرئيسى في هذه العملية والنتيجة الثورية في الشرق الأدنى التي تبدو اليوم واضحة للعيان لم يكن يتنبأ بها رجالات السياسة منذ مائة عام عندما كانوا يتخذون في تردد قرارهم فيما يتعلق بقبول هذه التكنولوجيا الأجنبية ، تكنولوجيا الغرب . في أقل جرعة ممكنة للوفاء بمتطلباتهم فيما يتصل بالامن العسكرى عندهم دون توسع أو تجاوز لهذا الحد ولكنهم حتى ولو كان لديهم

أي عيب في القوى الخفية التي كانت لـ حصان طرواده الذي كان يتحرك في كمينه داخل إطاره الجديد ، فربما كانوا سيظلون عند رأيهم في تحريكه في الداخل . فقد أدركوا بوضوح أنهم إذا ترددوا الآن في اتخاذ هذه التكنولوجيا الغربية الأجنبية فإنهم سرعان ما سيقعون فريسة للغزاة الغربيين المزودين بأسلحة لم يكن لهم بها قبل يومذاك . فلقد كان الخطر الخارجي للغزو من جانب أية دولة غربية هو التهديد المباشر الذي كان على رجال السياسة في الشرق الأقصى خلال القرن التاسع عشر أن يقفوا أمامه ويكافحوه . وبالمثل كان الخطر الداخلي من أن يقعوا في النهاية ماديًا ومعنويًا أسرى لطريقة الحياة الغربية كنتيجة لاتخاذهم التكنولوجيا الغربية — كان هذا الخطر يمثل تهديدًا أكثر بعدا .

وهكذا كان اتخاذ التكنولوجيا الغربية في القرن التاسع عشر بما كانت عليه يومذاك من مستوى متفوق تفوقًا شاملاً ، كان اتخاذها يبدو أمام السياسيين في الشرق الأقصى مخاطرة مشروعة بل وضرورة حتمية أيضًا . . وهذا يفسر لنا لماذا أخذ هؤلاء السياسيون في ذلك الوقت شيئًا ما عن الغرب وكان شيئًا قليلًا بالنسبة لاستعدادهم وعلى أي حال فقد بدا أن ذلك كان أقل شراً من أن يقعوا في قبضة الغرب والتبعية له ، وهذا الغرب هو صاحب الأسلحة التي كان سياسيو الشرق الأقصى في ذلك الوقت يقررون اقتباسها كسياسة لتأمين أنفسهم سياسياً وعسكرياً . ومن ناحية أخرى فإن ، المسألة الغربية ، وهي المسألة التي كان على السياسيين في الشرق الأقصى خلال القرن السابع عشر — وهم أنسلاف سياسي القرن التاسع عشر — أن يعالجوها قد عادت لتقدم نفسها مرة ثانية في شكل آخر مختلف تماماً .

فلم يكن الخطر المباشر في جولة الصراع أو الاحتكاك الأول مع الغرب وهو الخطر الذي كان على السياسيين في اليابان أن يصدوه عن بلادهم ، لم يكن هذا الخطر هو أن يروا بلادهم تقع في أيدي الجنود الغربيين المزودين بالأسلحة الجديدة التي لا يمكن لهم مقاومتها ، بل كان هذا الخطر هو أن يروا شعوبهم تتحول عن دينها على أيدي المبشرين الغربيين حين يروجون لدين أجنبي لا يقاوم

إعراؤه ، وربما لم يكن هؤلاء السياسيون اليابانيون في القرن السابع عشر وهم
 ظل النقيض في ذلك تقيض المسيحيين الغربيين الذين وفدوا إلى بلادهم في
 نفس هذا القرن زائرين . لم يكونوا قد أصيبوا بعد بدوى التعصب
 الذي كان متعصروهم من الغربيين قد ورثوه من ماضي اليهودية
 المسيحية وكانوا يعلنونه خلال هذا القرن في الحروب الدينية الداخلية في بلادهم
 الأوروبية ، كذلك فإن هؤلاء السياسيين من أبناء الصين واليابان في القرن
 السابع عشر كانوا قد نشأوا وترعرعوا في ظل التمايل الفلسفية للكونفشيوسية
 والبوذية وهي من غير شك أكثر تسامحاً ورقة ، وربما لم يكونوا ليعترضوا على
 إقامة ميدان حر لدين آخر لو لم يخامرهم الشك في أن النشاط الديني الذي يقوم
 به المبشرون المسيحيون الغربيون له دوافع سياسية بعيدة . أما ما كان يخشاه
 السياسيون اليابانيون ويخافون منه أشد الخوف فهو أن شعوبهم التي كان هؤلاء
 المبشرون الأجانب يعملون على تحويلها عن دينها إلى المسيحية الغربية ستشرب
 روح التعصب الديني التي كان يتسم بها الدين المسيحي الذين تحولوا إليه ، وتحت
 هذا النفوذ الأخلاقي الشائن سيسمحون لأنفسهم بأن يستخدمهم هؤلاء
 المبشرون كطائفة من هذه الطوائف التي نطلق عليها اليوم في الغرب اسم
 الطابور الخامس .

ولو قدر لهذا الاتجاه أن ينجح فإن البرتغاليين أو الأسبان — الذين
 لم يكونوا يمثلون يومذاك في حد ذاتهم تهديداً حقيقياً أو خطراً على استقلال
 اليابان — قد يعملون في النهاية على التغلب على اليابان عن طريق هؤلاء الجواسيس
 من أبناء اليابان أنفسهم وليس من شك في أن الدافع الذي جعل حكومة اليابان
 في القرن السابع عشر تحرم المسيحية في بلادها وتضيق الخناق عليها هو نفس
 الدافع الذي يجعل الحكومات الغربية اليوم وفي القرن العشرين تحرم الشيوعية
 وتضيق الخناق عليها أيضاً . وهنا عنصر مشترك بين هاتين العقيدتين الغربيتين
 المسيحية والشيوعية — هذا العنصر هو التعصب الذي ورثته كل من
 العقيدتين عن اليهودية وهو — أي التعصب — عامل كان يمثل دائماً حجر
 العثرة في أية دولة استيوائية يدعى فيها للديانة المسيحية .

ومن الواضح ان الدين الاجنبي الغازي يعتبر تهديدا مباشرا أكثر خطورة من التكنولوجيا الاجنبية الغازية على المجتمع الذي يكون موضع الغزو ، فهناك سبب لذلك أعمق من خطورة استخدام الدين تحولوا إلى الدين وأصبحوا طابورا خامسا في بلادهم ذلك أنه بينما تلعب التكنولوجيا دورها على سطح الحياة فقط نجد الدين يمتد إلى أغوار عميقة ، إلى الجذور ، ومع أن التكنولوجيا الاجنبية قد يكون لها أيضا تأثير مدمر عميق على الحياة الروحية للمجتمع الذي تستطيع هذه التكنولوجيا ان تخلق لنفسها فيه موطن قدم إلا ان هذا التأثير يستغرق بعض الوقت حتى يظهر ، ومن أجل هذا فإن أية حضارة غازية تدخل في شكل الدين قد تثير معارضة أقوى وأسرع من الحضارة التي تدخل في ثوب تكنولوجيا خالص .

ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا لاقت الحضارة الغربية رفضا ومعارضة من كل شعوب الشرق الأقصى وشعوب روسيا في أول الأمر ثم لاقت قبولا ورضا بعد ذلك في المرة الثانية ، لقد لاقت الحضارة الغربية رفضا في روسيا في القرن الخامس عشر وواجهت نفس الموقف كذلك في الشرق الأقصى في القرن السابع عشر لأنها كانت تهدف إلى تحويل شعوب هذه البلاد إلى الشكل الغربي للمسيحية ، ولم يكن من قبيل المصادفة ان حظ الحضارة الغربية في ميدان التبشير قد تغير من الفشل الواضح إلى النجاح الملحوظ بمجرد أن تغير موقفها من دينها الموروث من التحمس الشديد إلى التشكك البارد .

ولقد حدثت هذه الثورة للروحية العظيمة في العالم الغربي في حوالي أواخر القرن السابع عشر حين اقلبت الحروب الأهلية الوحشية التي ظلت قائمة فترة مائة عام لا تقطع تحت ظل أعلام الطوائف الدينية المتنافسة — أقول اقلبت هذه الحروب نفوس شعوب العالم الغربي وجعلتهم لا يكرهون الحروب الدينية فقط ويعلنونها بل يكرهون كذلك الدين نفسه وكان رد الفعل عند العالم الغربي لتجربة القصاص الذاتي SELF INFLICTED EXPERIENCE بعد أيام

التعصب الدينى، كان رد الفعل هذا هو أنهم سيجبوا رصيدهم من الدين ليستغلوه فى التكنولوجيا، وكان اخذ الغرب جزءا من رصيد انجيل حضارتهم لاستغلاله فى تكنولوجيا مادية بعد تمزيق صفحة التعصب الدينى هو الاتجاه الذى وجد رواجا واسعا فى العالم خلال القرنين ونصف القرن الماضية أى ابتداء من جيل بطرس الأكبر حتى جيل مصطفى اتاتورك .

وقد نعثر ونخن نبحث عن تفسير للاختلاف الذى يلفت النظر بين نتيجتى حركتى الغزو الغربى المتتاليتين فى الشرق الأقصى ، قد نعثر على قانون إذا جاز الإنسان أن يسمى ذلك قانوناً لا ينطبق فقط على هذه الحالة وحدها دون غيرها بل ينطبق كذلك على كل حالة من حالات الاحتكاك والصراع بين أية حضارة وأخرى وهذا القانون يشير إلى أن أى جزء من أية حضارة ينشئ من الكل أى من كل هذه الحضارة ويروح بنفسه فى مكان آخر خارج موطن حضارته الأصلية قد يقابل بمقاومة أقل — ومن ثم ينتشر على نحو أسرع وأبعد — مما تقابل به حضارة انتقلت بكليتها . فقد لاقت التكنولوجيا الغربية حين انفصلت عن المسيحية الغربية قبولا واستجابة لا فى الصين واليابان وحدهما بل كذلك فى روسيا ودول أخرى كثيرة غير غربية بينما واجهت رفضا وإعراضا حين كانت تقدم نفسها على أنها جزء لا يتجزأ من كل وجزء لا يتجزأ أيضاً من طريقة الحياة المتكاملة للمسيحية الغربية .

ورواج التكنولوجيا الغربية على مستوى عالمى تقريبا — وهى الجزء الذى أنشئ من الحضارة الغربية منذ أواخر القرن السابع عشر — هذا الرواج يدعو إلى الدهشة إذا قورن بالفشل الجسيم الذى أصاب هذه الحضارة الغربية حين قامت تعمل على تحويل شعوب العالم غير الغربى إلى طريقة الحياة الغربية فى الفترة الأولى من العصر الحديث حين كان الغرب يعرض حضارته الغربية على هذا العالم ليقبلها ككل أو يرفضها ككل بما فيها من دين وتكنولوجيا وغيرهما .

في اليوم وأحين وقعت دولينا تحتل مناصرة الغرب في محاولته كسب العالم
فقطيج أن نترك أن انتصار الحضارة الغربية الواضح بفضل التكنولوجيا لن
يكون انتصاراً دائماً نظراً لنفس السبب الذي جعل هذا الانتصار أمراً سهلاً
هذا السبب هو أن هذا الانتصار لا يعدو أن يكون مجرد انتصار ظاهري فقط
فإن الغرب قد أطلق تكنولوجياه لتتسابق حول العالم بحجة أنها قد تحررت من
قيود ارتباطها بالمسيحية الغربية ، ولكن هذه التكنولوجيا الغربية التي لا ترتبط
بالمسيحية الغربية قد التقطها الروس وربطوها بالشيوعية وهذا المزيج الجديد
المتناسك من التكنولوجيا الغربية والزيف الدين الغربي فالشيوعية ليست سوى
هرطقة دينية غربية تقدم اليوم إلى شعوب الشرق الأوسط بل وإلى جميع
الشعوب الأخرى على أنها طريقة للحياة تنافس طريقة الحياة الغربية .

ولقد كنا معشر الغربيين في القرن التاسع عشر نسر كثيراً حين رأينا شعوب
الصين واليابان الذين رفضوا حضارتنا الغربية في صورتها الدينية قد قبلوها في
صورتها الدنيوية المادية التي حظيت فيها التكنولوجيا (لا الدين) بمكان التقدير
والإعتراف . فقد بدا أن ثورة الميجي Meiji ، في اليابان ثورة الكومنتاج في
الصين لم تكونا سوى انتصار للحضارة الغربية الدنيوية المادية ، غير أن العمر
قد امتد بنا حتى رأينا كيف أن هذا التوسع للحضارة الغربية الدنيوية قد خيب
آمالنا في هاتين الدولتين . فقد خلق في اليابان نظاماً عسكرياً يعتبر كارثة كبرى
كما خلق في الصين كذلك فساداً سياسياً يعتبر هو الآخر كارثة كبرى ودفعنا
إلى الحكم في هاتين الدولتين إلى نهاية قاسية عذيفة .

في هذا الفصل الذي أصاب محاولة خلق تكييف وأقلية الشكل الدنيوي
للحضارة الغربية في الصين قد تبعه انتصار للحركة الشيوعية فيها ، فما هي إذن
تلك الظروف التي ساعدت الشيوعية في الصين ؟ وما هو الشيء الذي اكسبها هذا
الخط هناك ؟

لا يمكن أن يكون هذا الشيء - كما يستطيع أي إنسان أن يتبين هو
وجود أي نوع من حماس إيجابي عظيم لدى الصينيين يومذاك بقدر ما يمكن أن

هو ذلك الصراع المنكود والفتن التي حدثت بين الجزويت والإرساليات المسيحية الكاثوليكية الرومانية الأخرى في نظمها .

فلم يرتكب اليسوعيون في الصين والهند الخطأ الذي ارتكبه في اليابان حين تركوا دعوتهم للمسيحية تصبح موضع شك واتهام بأنها تعمل لتحقيق أهداف سياسية لمصلحة الدول الغربية المعتدية . وكانت طريقة اليسوعيين في عملهم للدعاية للمسيحية في الصين طريقة مختلفة وناجحة في حد ذاتها بحيث أنه هذا سببنا لصراع الشعوب الآسيوية واجتكاكها بالغرب تستظل ناقصة مالم نأخذ في الاعتبار ذلك النموذج الذي سار عليه اليسوعيون في كل من الصين واليابان فبدلاً من أن نحاول - كما فعلنا - فصل الصورة الدنيوية لخضارتنا الغربية عن المسيحية حاول اليسوعيون فصل المسيحية عن كل عنصر غريب غير مسيحي في الحضارة الغربية وقدموا المسيحية إلى الهندوك والصينيين لآعلى أنها دين محلي خاص بالغرب بل على أنها دين عالمي تنبأه رسالته إلى كل البشرية . وهذا الانتصار الحديث الذي أحرزته الشيوعية في الصين على الحضارة الغربية التي انفصلت عن المسيحية ليس دليلاً على أن المسيحية لن يكون لها في الصين مستقبل في الفترة القادمة من التاريخ وهي الفترة التي لا تزال اليوم بعيدة عن افئنا التاريخي .

الفصل الخامس

سيكولوجية الصراع

في الفصول الأربعة السابقة من هذا الكتاب كنا نعرض أربعة مواقف عامة تصارعت فيها الحضارة الغربية مع مجتمع معاصر غير غربي، درسنا فيها تجربة من روسيا والعالم الإسلامي والهند والشرق الآسي مع الغرب. وأوضح طرفنا: هذا أن هذه التجارب الأربع المختلفة التي حدث فيها هجوم حضارة غربية كانت تشترك جميعها في عذد من الملامح. وهدفنا في هذا الفصل من الكتاب هو أن نأخذ بعض هذه الملامح التي لا تعتبر تمييزاً أو تحديداً لمعالم صراع العالم المعاصر مع الغرب فقط بل تعتبر كذلك تمييزاً لمعالم كل صراع واحتكاك يتم بين أية حضارة وأخرى.

ويبدو أن هناك شيئاً ما أشبه بسيكولوجية عامة يشترك فيها كل صراع وهو الشيء الذي أصبح اليوم موضع الاهتمام العملي والأهمية القصوى بعد أن أدى القضاء المفاجيء على المسافات بفضل ما حققته التكنولوجيا الغربية إلى أن تقف ستة مجتمعات وجهاً لوجه ويتصل بعضها ببعض أن كان كل منها يعيش حتى الآن حياته بطريقة الخاصة مستقلاً تقريباً عن غيره. إنه كما لو كان يعيش في كوكب خاص لا في عالم واحد توجد فيه عناصر أخرى من نفس الجنس.

وقد بدأنا هنا بأن نذكر أنفسنا بالظاهرة العامة التي لاحظناها في الفصل السابق حين كنا نقارن بين غزو الحضارة الغربية الأولى وغزوها الثاني للصين واليابان. فقد رأينا أن الغرب في المرة الأولى قد حاول أن يقتنع شعوب الشرق الأقصى بأن طريقة الحياة الغربية على إطلاقها بكل ما تتضمنه من دين وتكنولوجيا ورأينا كذلك كيف أن هذه المحاولة لم يقيض لها النجاح ثم رأينا الغرب في الفصل الثاني من المبرحة يقدم لنفسه هذه الشعوب شعوب الشرق

الأقصى صورة ذنوية مقتبسة من الحضارة الغربية وهى صورة تركت الدين جانبا وكانت التكنولوجيا فيها - وليس الدين - هى السمة الرئيسية .

ولاحظنا كذلك ان هذا الجزء التكنولوجى الذى انشق عن الأصل الدينى للحضارة الغربية فى حوالى القرن السابع عشر قد نجح فى ان يأخذ طريقه إلى أعماق حياة مجتمع الشرق الأقصى الذى سبق أن رفض محاولة ادخال طريقة الحياة الغربية ككل بما فيها من تكنولوجية وغيرها لأنها كانت تتضمن ديننا .

ولدينا هنا نموذج لهذا الشيء الذى يبدو انه يحدث غالباً حين يصطدم شعاع فكروى من حضارة مشعة بمجتمع أجنبي عنه تكون مقاومته هذا المجتمع الأجنبي المغزو هى تفريق هذا الشعاع إلى عناصره الأساسية التى يتكون منها تماماً كما تتحلل اشعة الضوء إلى ألوان الطيف حين تنفذ هذه الاشعة خلال المنشور ونجى نعرف أيضاً فى علم البصريات ان بعض عناصر الضوء فى الطيف يكون لها قوة نفاذ أكثر من غيرها .

وقد رأينا سابقاً ان هذا هو نفس ما حدث فى العناصر الأساسية للشعاع الحضارى فى حالة تأثير الغرب على شعوب الشرق الأقصى رأينا ان العنصر التكنولوجى أو بعبارة أدق الشعاع التكنولوجى فى اشعاع الحضارة الغربية قد تغلب على مصادفه من مقاومة بينما لم يستطع العنصر أو الشعاع الدينى ذلك . وهذا الفرق فى قوة نفاذ شعاع الحضارة التكنولوجية والدينية ليست ظاهرة غربية على تاريخ العلاقات بين هاتين الحضارتين بل ان هذا واحد من قوانين الاشعاع الفكرى . فعندما يتحلل الشعاع الحضارى المنطلق إلى أشعته أو عناصره الأساسية تكنولوجيا ودينا وسياسة وفن الخ . بفعل المقاومة التى يبديها المجتمع الأجنبي الذى اصطدم به هذا الشعاع فإن العنصر أو الشعاع التكنولوجى هو الذى ينفذ أسبق وأعمق من الشعاع الدينى ويمكن صياغة هذا القانون فى اصطلاحات عامة أكثر . فيمكن ان نقول ان قوة النفاذ والتغلغل لشعاع من الاشعاع الحضارى تناسب تناسباً عكسياً للقيمة الحضارية لهذا الشعاع . ونحن نشاع نلقه فى المجتمع الأجنبي الذى يعزوه مقاومة أقل مما يثيرها شعاع هام لأن

الشعاع الثاني لا يهدد بخلق اضطراب أو قلق زعنف، ويؤثر على طريقة الحياة التقليدية التي عليها هذا المجتمع المغزو.

وهذا الانتخاب الآلي الذي يترتب عليه أن تكون العناصر النافذة من عناصر الحضارة المشبعة أو سنع انتشاراً في الخارج هو بلا شك واحد من القواعد المؤسفة في ميدان التفاعل الحضاري ولكن هذا ليس أمثواً ما في الموضوع "فنفس عملية تفريق الشعاع التي تعتبر جوهر عملية التفاعل الحضاري بهذا يتسم حياة المجتمع الذي يتخلل جسم العناصر والإشعة المتعددة للشعاع الحضاري المتفرق.

ويمكن استخدام أمثلة مشابهة من على الطبيعة والطب لكي توصل هذه الموضوع أيضاً فيعد أن اكتشفنا فكرة تفتت الذرة عرفنا وليننا ما عرفنا أن الجزيئات التي تكون ذرة ذات عنصر غير مؤذ لا تظل هكذا غير مؤذية بل تصبح ذات أثر تدميري خطير بمجرد أن تنشق عن مجموعة الجزيئات المنتظمة التي تتكون منها الذرة وأيضاً بمجرد أن تطلق لتطير نفسها في مهمات مستقلة خاصة بها. ولقد عرفنا كذلك ولم يكن هذا على حسابنا في هذه المرة بل على حساب البقايا الحية من الإنسان البدائي وهي العناصر التي كانت ذات يوم في عزلة تامة عن العالم — عرفنا أن المرض الذي يعتبر مرضاً عادياً بالنسبة لنا بسبب شيوعه يتنا بعد أن خلقنا له مقاومة فعالة هذا المرض قد يكون مرضاً مميتاً ومهلكاً بالنسبة لسكان جزر المحيط الجنوبي الذين كانوا في مأمن منه قبل أن يتعرضوا له فجأة بسبب وصول الأوروبيين الذين كانوا يحملونه معهم "خير" وقدواً إليهم.

وقد يصبح العنصر أو الشعاع المنطلق من الإشعاع الحضاري مثلاً يصبح الإلكترون المنطلق وكذلك المرض المعدي قد يصبح هذا العنصر عنصر مدمر حين يتفصل من المجموعة التي كان يقوم بدوره فيها حتى وقت انطلاقه ثم ينطلق لينهب بعداً بنفسه إلى بيئة أخرى. فهذا العنصر أو الشعاع الحضاري في مكانه الأصلي وكذلك الميكروب والالكترين لا يستطيع أن يقوم بعملية التدمير

لأنه يظل محتفظاً بنظام معين بفضل ارتباطه بالعناصر الأخرى من عناصر التوزيع الذى تمتع به الجزئيات المتعددة بحالة اتزان . وهذا الجزء المنطلق وكذلك الميكروب أو العنصر أو الشعاع الحضارى المنطلق لا يغير طبيعته بل إن نفس طبيعته هذه هى التى تولد الأثر المدمر بدلا من الأثر السلبى الذى كان عليه هذا العنصر حين كان مرتبطاً بمجموعته الأصلية وفى هذه الحالة يمكن أن يصبح طعام لإنسان من الفخوم سماً بالنسبة لإنسان آخر .

وفى الصريح الذى قام بين العالم والغرب — وهو موضوع هذا الكتاب — رأينا كيف ظهر الشكل التقليدى أى كيف ظهرت الشروز التى يحدثها دائماً نظام ما حين ينطلق من مكانه الاصلى الذى كان مرتبطاً فيه مع مجموعة أخرى من النظم التى تشكل جميعها هيكلاً واحداً لتيجه إلى جزء آخر من العالم يصارع ويتصارع بنفسه .

ولقد رأينا كيف أن النظام السياسى الغربى فيما يتعلق بنظام الدول القومية ، خلال المائة والحسين عاماً الماضية قد استطاع أن يحطم حدود موطنه الاصلى وأن يشيع الاضطهاد والاعتقالات حين انتشر خارج أوروبا الغربية فى مناطق أوروبا الشرقية وجنوب غربى آسيا والهند كذلك وهى مناطق لم يكن نظام الدول القومية ، فيها جزءاً أساسياً من نظامها الاجتماعى المحلى بل كان نظاماً أجنبياً عليها أدخله الغرب عمداً لأنه ثبت بالتجربة أنه نظام يناسب الأوضاع والظروف المحلية فى هذه البلاد غير الغربية بل لأن المسألة فى بساطة هى أن السلطات السياسية الغربية قد أضقت على النظم السياسية الغربية هيئة أمام أعين شعوب الدول غير الغربية وإن لم تكن هذه الهيئة قائمة على سبب معقول .

ولقد كان الدمار الذى جاء نتيجة تطبيق نظام القوميات ، الغربى فى هذه المناطق من العالم غير الغربى وهو نظام دخل عليها — كان هذا الدمار أخطر وأعظم من الدمار الذى أحدثه نفس هذا النظام فى بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الغربية الأخرى وهى الدول التى لم يكن هذا النظام فيها بدرجة دخله غير طبيعية بل كان هو القومية تلقائياً فيها .

ونستطيع أن ندرك لماذا كان لنفس النظام أثر مختلف يلفت النظر في كل من هاتين البيئتين الاجتماعيتين المختلفتين . فنظام الدول القومية ، أو بعبارة أوضح والقوميات الغربية لم يكن نظاما ضارا إلى حد كبير بالنسبة لأوروبا الغربية نظرا لنفس الدافع الذي أدى إلى ظهوره هناك لأن وجوده في الدول الغربية كان استجابة للعلاقة المحلية بين توزيع اللغات من ناحية وبين تخطيط الحدود السياسية من ناحية أخرى . فقد حدث في الدول الغربية أن كل الشعوب التي كانت تتكلم لغة واحدة كانت في معظم الحالات تتجمع معا في منطقة واحدة تتواجم بصفه مستمرة داخل حدود لغوية محددة إلى حد ما وهذه الحدود اللغوية هي التي تفصل هذه المنطقة عن المناطق المشابهة الأخرى التي تتنوعها لغات أخرى . وفي المنطقة التي يكون توزيع اللغات فيها قائما على أساس تنوع لغوي نجد أن الخريطة اللغوية هي التي تساعد إلى حد ما في تحديد رسم الخريطة السياسية ومن ثم تظهر القوميات الغربية أو الدول القومية الغربية . تناجا طبيعيا للبيئة الاجتماعية .

وليس من شك في أن معظم مناطق الدول التاريخية في أوروبا الغربية تتوافق في الواقع توافقا تقريبا مع الأجزاء المتجانسة من الخريطة اللغوية وهذا التوافق قد جاء في كثير من الحالات على نحو تلقائي غير مرسوم ولم تكن شعوب أوروبا الغربية تدرك تماما هذه العملية التي تشكك فيها حدودهم السياسية على أساس لغوية .

وأن لم تكن كانت روح القومية تلعب دورها وتسير طريقها في بساطة ويشتر داخل مواطنها في غرب أوروبا أما الاقليات اللغوية في الدول القومية في أوروبا الغربية وهي الاقليات التي وجدت نفسها في وضع غير صحيح من حيث التخطيط السياسي فقد أعلنت ولائها وأخلاصها في المناطق اللغوية المختلفة التي وجدت نفسها فيها ونعومت من أهل هذه المناطق معاملة تستحق الاعتبار لأن تعايش هذه الاقليات مع أغلبية تحدثت اللغة القومية باعتبارهم زعماء مواطنين في كومنولث واحدة أصبح حقيقة تاريخية لم يأت بها عبدا إلى إنسان ولا يستطيع أحد أن ينكر من عليها .

ولكن التدريس الآن ماذا حدث حين ادخل هذا النظام الأوربي الغربي
أي نظام الدول القومية الغربية — وهو النظام الذي كان في موطنه الأصلي
لبنى أوروبا الغربية تناجا طبيعيا للخريطة اللغوية المحلية — إلى مناطق أخرى
غير غربية كانت تقوم فيها الخريطة اللغوية المحلية على أساس مختلف تماماً كانت
عليه في أوروبا الغربية .

وحيث ننظر إلى الخريطة اللغوية بخريطة العالم لا خريطة أوروبا الغربية
نرى أن النموذج الغربي المحلي الذي قام فيه توزيع اللغات على أساس تكتلات
متجانسة مزدخمة كان نموذجاً غريباً وشاذاً إلى حد ما . ففي منطقة قسيحة تمتد
من دانزج وتريستي حتى بلكستا وسنغافوره نرى أن النموذج الخريطة اللغوية
في كل هذه المنطقة لا يشبه نموذج خريطة لغوية مرقعة بل هو أشبه ما يكون
بمخطط حريري واحد ملون .

وفي أوروبا الشرقية وكذلك في جنوب غرب آسيا والهند والملايو لا يكاد
يختلف هؤلاء الذين يتحدثون لغات مختلفة بعضهم عن البعض الآخر — كما هو الحال
مثلاً في أوروبا الغربية . فهم جميعاً متشابهون من الناحية الجغرافية في منازل
متلاصقة متبادلة تقع كلها في شوارع واحدة لمدن وقرى واحدة . وفي هذا
الوضع الاجتماعي العادي المتنوع نجد الخريطة اللغوية التي تداخلت فيها الخطوط
ذوات الألوان المختلفة كل منها مع الآخر — نجدتها تمثل أساساً يساعد لا على
رسم الحدود بين الدول بل توطن السكان وتنظيم الشؤون التجارية بين الأفراد .

وفي الإمبراطورية العثمانية منذ مائة وخمسين عاماً مضت أي قبل أن يدخل
النظام الغربي الخاص بفكرة الدول القومية إلى هذه المنطقة الأجنبية عليه كان
الأتراك يشتغلون بالفلاحة والأعمال الإدارية وكان اليونانيون يشتغلون
بالحجارة وأصحاب جوانيت والأرمنيون رجال مصارف والبلغاريون عمال خيل
سائس ، والألبانيون بنائين وجنوداً مرتزقة والأكراد رعاة وجمالين .

ولم تكن القوميات في هذه المنطقة مندمجة بعضها مع بعض فقط كواقع جغرافي بل كانت كل منهما تكمل الأخرى اقتصاديا واجتماعيا .

وهذا التجاوب أو هذا الارتباط بين القوميات والسكان كان نظاما طبيعيا في عالم لم تكن الخريطة اللغوية تشكل فيه قطعة مرقعة بل كانت بمثابة العجينة المتناسكة وكان الأسلوب الوحيد لخلق دول قومية في هذا العالم العثماني تاتي على النمط الغربي هو القيام بتحويل هذه العجينة القومية المتناسكة إلى قطعة مرقعة تشبه النموذج اللغوي السائد في أوروبا الغربية .

ولم يك من الممكن تنفيذ ذلك إلا بعد استعمال كثير من وسائل العنف التي ظلت تستخدم طوال مدة امتدت حوالى مائة وخمسين عاما وكانت لها نتائج مدمرة في جزء بعد آخر من المنطقة التي تمتد حتى حدود البنغال الشرقية . وهكذا كان هناك دمار هائل أحدثه نظام أو فكرة أو تكتيك انطلق من موطنه الأصلي وذهب بنفسه إلى بيئة اجتماعية أخرى تصارع داخلها مع نموذج على تاريخي لحياة اجتماعية .

وليس من شك في أن كل نموذج حضارى تاريخي يعتبر كلا عضوا تحتفظ أجزاؤه كلها بعضها على البعض الآخر ، وإذا حدث أن انفصل جزء من هذه الأجزاء من مكانه فإن كلا من الجزء المنفصل والكل الذى انشق منه هذا الجزء يقصران تصرفا مختلفا عن تصرفهما حين كان النموذج كله متناسكا .

وهذا هو السبب في أن اللحوم بالنسبة للإنسان يمكن أن تكون طعاما بالنسبة للإنسان آخر .

وهناك كذلك نتيجة أخرى هي أن وجود شيء ما قد يؤدي إلى وجود شيء آخر فلو أن جزءا من أية حضارة قد انفصل عن هذه الحضارة ثم أدخل إلى جسم اجتماعي آخر أجنى عنها فإن هذا الجزء المنفصل سيجر وراءه إلى داخل هذا الجسم الاجتماعي الأجنبي الذى استقر فيه واستوطنته أقول سيجر وراءه العناصر الأساسية الأخرى التي يتكون منها النظام الذى انفصل عنه هذا الجزء فكل بقعة تعفنية غير طيبة

ثم يميل هذا الشكل الذي تحطم إلى ان يعيد بناء نفسه في بيئة اجنية بعد ان اوجد لنفسه فيها طريقا يسلكه .

وإذا كنا نريد ان نعرف في ميدان التداخل الحضارى كيف يمكن ان يردى وجود شيء إلى وجود شيء آخر إذا كنا نريد ان نعرف كيف تتم هذه العملية على الطبيعة فإن علينا ان ننظر إلى مثال او مثالين مجردين . فقد جاء فى الكتاب الأزرق الذى اصدرته المملكة المتحدة والذى مسح مصر اجتماعيا واقتصاديا عام ١٨٣٩ انه تم فى مدينة الاسكندرية فى هذا التاريخ بناء مستشفى رئيسى للولادة داخل نطاق منطقة الترسانة البحرية وكان لهذا وقع غريب . ولكننا سنرى ان تنفيذ مثل هذه الخطوة كان أمراً محتماً خاصة إذا تتبعنا توالى الأحداث التى أدت إلى هذه النتيجة التى تدهشنا حين ننظر إليها لأول وهلة . فقد ظل محمد على والى مصر التركى ابتداء من عام ١٨٣٩ ولمدة اثنين وثلاثين عاماً يعمل على تزويد نفسه بالأسلحة الحديثة التى كان يستخدمها الجيل الغربى المعاصر له يومذاك وكان فشل حملة نابليون على مصر دافعاً جعل محمد على يتنبه إلى أهمية ما للقوة البحرية من اثر فقرر أن يصبح له اسطول بحرى يتكون من مجموعة لا بأس بها من السفن الحربية الحديثة النماذج الغربية .

وإدراك أنه لن تكون لديه الكفاية الذاتية من حيث القوة البحرية مالم يكن فى موقف يسمح له بأن يصنع السفن الحربية فى ترسانة مصرية كما أدرك كذلك أنه لن يستطيع أن يتوافر لديه جهاز من الموظفين المصريين الفنيين فى شئون الأساطيل البحرية مالم يستعن بمهندسين بحريين من الدول الغربية وعدد آخر من الخبراء فى شئون الأساطيل البحرية لتدريب الطلبة المصريين ومن ثم أعلن محمد على عن حاجته إلى خبراء غربيين قسارع الكثيرون منهم بتقديم ظليانهم للعمل فى مصر خاصة وأن الأجور العالية التى عرضها محمد على كانت من الإغراء بحيث لا يمكن رفضها .

غير أن هؤلاء الخبراء والمهندسين رفضوا توقيع عقودهم مالم يأخذوا ضمانات أكيدة بإحضار أسراتهم معهم ثم رفضوا إحضار أسراتهم معهم مالم

ياخذوا ضمانات كافية بوجود شروط مناسبة فيما يتصل بالرعاية الصحية لهم ولعائلاتهم على أن تكون هذه الرعاية على مستوى مثلتها في ميدان الخدمات الطبية في الغرب .

وهكذا وجد محمد على أنه لن يستطيع أن يستأجر خبراء الأساطيل البحرية الغربيين الذين كان في حاجة إليهم ما لم يستأجر معهم كذلك أطباء غربيين لرعاية عائلات هؤلاء الخبراء ، ولما كان محمد على يريد أن يرضى غروره ويحقق أطماعه الشخصية بخلق أبسطول مصرى فقد وجد نفسه مضطراً إلى استخدام عدد من الأطباء الغربيين .

وهكذا حضر إلى مصر خبراء مهندسون وأطباء غربيون تصحبهم عائلاتهم وبينما كان الخبراء يقومون بوضع أساس الترساة المصرية كان الأطباء الغربيون في نفس الوقت يقومون بأعمالهم الطبية بالنسبة لزوجات وأطفال الجالية الغربية الجديدة التي استوطنت الاسكندرية غير أن الخدمة الطبية والرعاية الصحية لهذه الجالية لم تكن تستغرق كل وقت هؤلاء الأطباء الغربيين فكان لديهم متسع منه يستطيعون أن ينفقوا ولو جزءاً منه للسكان المحليين فبدأوا بإقامة مستشفى للولادة . .

ولهذه القصة مغزاها الذي نريد أن تصل إليه وهذا المغزى هو السرعة التي أمكن بها في ميدان التداخل الحضارى أن يوردى وجود شيء إلى وجود شيء آخر .

ففي ذلك الوقت كانت سياسة العزل التقليدى للبراة المسلمة عن الاتصال بالرجال خارج منزلها لا تزال مقروضة على نحو دقيق حتى في تركيا خلال القرن الثامن عشر وحتى عندما تكون أعلى وأعز زوجات السلطان من المرضى بحيث تصبح حياتهم عرضة لخطر موت محقق كان أقصى ما تسمح به قواعد السلوك الإسلامية للطبيب الغربى أن يفعله مع هذه الزوجة هو أن يحض بعض يدها التي تمدها في حياها ويخجل من بين ستائر محكمة الغلق على سريرها غير المنظور .

وكان الخياكم التركي الأوتوكراطي ضعيفا أمام سلطة التقاليد الإسلامية
والعرف الاجتماعي الإسلامي بحيث لا يستطيع أن يחדشه حتى ولو كان في أمر
يتعلق بالحياة والموت بالنسبة لأغلى زوجة عنده . ولكن السيدة المسلمة في ذلك
الوقت كانت تغامر في جرأة بالذهاب إلى منطقة الترسانة الأجنبية للاستفيد من
خدمات أطباء الولادة الغربيين الكفار . وكان هذا الاعتداء الجريء لحرق
مفاهيم الحشمة الإسلامية التقليدية في ميدان العلاقات الاجتماعية بين الرجل
والمرأة نتيجة لتنفيذ قرار محمد علي تزويد نفسه بأسطول بحري يتم إنشاؤه على
النمط الغربي . فهذا التأثير الاجتماعي البعيد الذي جاء اتفاقاً كما رأينا كان خطوة
تالية طبيعية لوجود دافع تكنولوجي .

وهذا القطاع من التاريخ الاجتماعي الذي يعبر آتم تعبير عن المعنى الذي
يعطيه هذا القطاع يعطينا مقياس الدرجة التي كان عليها رجال السياسة العثمانية في
القرن التاسع عشر من خداع أنفسهم حين تخيلوا أن في استطاعتهم أن يتجسروا
في تزويد بلادهم بما تحتاج إليه من الأسلحة الغربية ثم يوقفوا بعد ذلك وعند هذا
الحد فقط طغيان امتداد شتى فروع التأثير الغربي .

ولم يكن العثمانيون مقتنعين إلا بعد عصر مصطفى أتاتورك بأنه أثناء عملية
التدخل الحضاري يمكن شيء أن يؤدي إلى شيء آخر فإدخال الأسلحة الغربية
وما يتبع ذلك من تموينات وملابس إلخ . سيؤدي حتماً إلى إدخال شيء آخر
وهذا الشيء لم يكن قاصراً على تحرير المرأة المسلمة من بعض التقاليد التي كانت
تحكم عالمها تركيا المسلمة بل امتد حتى زحف إلى الأبحدية العربية التي استبدلت بالبحدية
لأنهية أو تحطفت إلى حد ما مطلقاً التزمّت الدين التي كان لها في الماضي نفوذ
فهي في كل مجال من مجالات الحياة في الإمبراطورية التركية ولم يكن أحد
يستطيع أن يقف أمام هذا النفوذ .

وقد أدرك المهاتما غاندي أو أتاتورك الهند العظيم كما يحلو لي أن أسميه إدراك
في العصر الحديث أن من الممكن في ميدان الاحتكاك الحضاري أن يؤدي

شيء إلى شيء آخر فقد رأى هذا الزعيم أن القطن — وهو المحصول الذي يزرع في الهند ولكنه يغزل في بوركشير يتحول إلى قماش منسوج ليلبسه الشعب الهندي — رأى هذا الزعيم أن هذه الخيوط من القطن تشكل تهديداً خطيراً من شأنه أن يربط الهند بالعالم الغربي على نحو محكم ومعقد بحيث يصبح من الصعب التخلص منه لأنه سيصبح بمثابة القيود المصنوعة من الصلب ورأى المهاتما أن الهنود لو ظلوا يرتدون هذه الملابس التي تصنعها الماكينة الغربية في الغرب فإنهم سرعان ما سيضطرون إلى استعمال نفس هذه الماكينة في الهند بعد ذلك لتحقيق نفس الغرض فهم (أي الهنود) سيستوردون أولاً آلات الغزل وأنوال النسيج ذات القوى من إنجلترا ثم يتعلمون طريقة إقامة هذه الآلات والعدد في بلادهم وقد يستتبع ذلك بطبيعة الحال أن يتركوا حقوقهم وميادين أعمالهم التقليدية الأخرى لكي يعملوا في مصانع القطن الهندية الجديدة التي شيدها لأنفسهم .

وعندما يتعودون قضاء أوقات العمل في هذه المصانع ويقيمون بوظائفهم فيها طبقاً للنظام الغربي الذي اقتبسوه فإنهم كذلك سيتعودون بالتالي قضاء أوقات فراغهم على النحو الذي يقضى به الغربيون أوقات فراغهم أيضاً أي أنهم سيأرسلون نفس وسائل التسلية التي يمارسها الغربيون حتى يجدوا أنفسهم في النهاية وقد شبوا على الروح الغربية تماماً فينسبون كذب يمكن أن يكونوا هنوداً أصلاً .

وبهذه النظرية البعيدة التي نفذ بها النبي الزعيم إلى أعماق الحقيقة رأى غاندى أن هذه الحبة من بذرة القطن ستتمو لتصبح شجرة ضخمة تحجب فروعها المتكاثرة أرض — القارة الهندية .

ولذلك أهاب بمواطنيه أن يحافظوا على الروح الهندية بالقضاء على جذور الشجرة الغربية ووضع لهم نموذجاً يسرون عليه في قضاء فترة من أوقاتهم كل يوم يغزلون وينسجون فيها القطن الهندي بأيديهم على الطريقة الهندية التقليدية القديمة لكي يصنعوا لأنفسهم الملابس التي يرتدونها فقد رأى المهاتما أن قطع (هـ - العالم والغرب)

فيه الاتصالات بين الهند والغرب هو وحده السبيل المضمون لإنقاذ المجتمع الهندي من أن يصبح غريباً جسداً وروحاً .

ولم يكن ثمة أي خال في هذه النظرة الناقبة التي يراها غاندي فتغريب الهند أي تحويلها إلى دولة غربية في شكلها وروحها - وهو الاتجاه الذي كان غاندي يعمل على إبعاده وصيده - كان ينبثق في سرعة عجيبة من هذه الحبة الأصلية لبذرة القطن وكان علاج المبدأ لعدي الهند من الغرب على هذا النحو علاجاً صحيحاً وسليماً .

إلا أن هذا الزعيم النبي لم يفشل إلا في أن يقنع تلاميذه واتباعه بأن يسيروا على نضائحه التي كانت تهدف إلى الاحتفاظ للهند باستقلالها الحضاري وذلك أن يأخذ الهنود أنفسهم بهذه التعاليم الاقتصادية الصارمة فارتداء الملابس القطنية التي تصنعها الماكينات لم يكن من الممكن رفضه من جانب الشعب الهندي في جيل غاندي دون أن يحدث انخفاض في مستوى معيشة الفلاح الهندي وهو مستوى كان منخفضاً فعلاً وأيضاً دون تعطيل أعمال كل من الطبقات الجديدة من عمال القطن الهنود وأصحاب الشركات والمصانع الهنود أيضاً وهم الذين انتبوا من تربة هندية في بومباي بل وفي مدينة أحمد آباد مدينة غاندي نفسه . غير أن غاندي وهذا عملاً أشك فيه - قد أحدث أثراً كبيراً وربما أثراً خالداً في تاريخ الهند وفي تاريخ العالم كذلك إلا أن سخرية التاريخ وقسوته قد قضتا على الأثر الذي أحدثته غاندي بأن لا يتخذ الهند من تغريبها اقتصادياً أي تحويل تعطلها الاقتصادي إلى نمط غربي بل دفع الهند إلى أن تسير على النموذج السياسي الغربي كذلك .

ولم تستطع سخرية غاندي أن تقف في ميدان الصراع أمام الدور الذي يقوم به القانون الاجتماعي في الصراع الحضاري يظل يوجد شيء ما يردى في ضلابة وعناد إلى وجود شيء آخر حين يحدث أدنى تصدع في جبهة دفاع المجتمع الذي يقع عليه الهجوم .

وتوضح دراستنا في هذه أن استقبال حضارة أجنبية آمن مؤلماً كما أنها في الوقت نفسه عملية خطيرة للغاية وإن النفور الغريزي للشعب الذي وقع ضحية هذه الحضارة الجديدة بنفوره من المستحدثات الجديدة التي تهدد بقلب طريقة حياته التقليدية رأساً على عقب يجعل التجربة بالنسبة لهذا الشعب شيئاً مؤلماً وهو حين يقوم بعملية مقارنته ما يواجهه من أضرار يكون بذلك في مرحلة عملية تحليل لشعاع الحضارة الأجنبية الواردة إلى عناصره الأساسية الأولى ثم يضطر في النهاية إلى التسليم في شيء من الحقد والكراهية التسليم لآفته وأصغر جزء من أجزاء نموذج طريقة الحياة الأجنبية على أمل أن يستطيع بحماية نفسه من عدم الاستسلام فيما بعد أكثر من هذا .

إلا أنه لما كان من المحتم « كما عرفنا » أن أحد الأشياء المؤدية إلى شيء آخر فإن هذا الشعب الذي أصبح ضحية الغزو الحضاري الجبتي يجد نفسه مضطراً في النهاية إلى الاستسلام والقبول ببقاء أجزاء الحضارة الدخيلة وهذا القبول أو الاستسلام يتم عادة بصورة تدريجية . وليس من العجيب ولا من المدهش أن نعرف أن هذا الموقف العادي من جانب الشعب الذي وقع عليه الغزو الحضاري تجاه الحضارة الأجنبية الدخيلة عليه إنما هو موقف يمكن أن نسميه « موقف الانهزام الذاتي لروح المعارضة والكراهية » .

ولقد أتاحت لنا أثناء دراستنا السابقة الفرصة التي لا نملكنا فيها كيف أن بعض الساسة في دول غير أوروبية قد تأثروا بالغرب الذي كانت له نظرة ثابتة رأى بها أن أي مجتمع يعيش في حالة الضوء الذي ينبعث من شعاع حضارة أجنبية أكثر فعالية وقدرة لا بد له من أن يقتبس طريقة الحياة عند هذه الحضارة الأجنبية أو ينتهي من عالم الوجود .

ولقد مرت بنا كما رأينا بأعيننا كذلك نماذج أوضحت لنا صحة ما نذهب إليه تمثلت هذه النماذج في بطرس الأكبر وسليم الثالث ومحمود الثاني ومحمد علي ومصطفى أتاتورك وساسة اليابان في عصر مييجي .

وليس من شك في أن هذه الاستجابة من جانب هؤلاء السياسيين لتجدي

المنجوس الحضاري الجديد عليهم دليلا على انتصارهم على الاتجاهات الطبيعية في هذا الصدد ليست سوى نوع من الاستجابة السلبية التي يتخذها الحمار يتلقى صدفه على نفسه والسلحفاة التي تنسحب داخل درقتها والقنفذ حين يكور نفسه ليثحول إلى كرة شوكية والنعامة حين تنحني رأسها في الرمال .

وليس من شك في ان معرفة الطريقة التي يحارب بها شعب حضارة اجنية تحتاجه باستخدامه اسلحة هذه الحضارة امر يثير الشكك في اذهان المحافظين ليس بطرس واناتورك وغيرهما كانوا في الواقع يبيعون القلعة بحجة انهم يرفعون اسوار دفاعها . بقي تلائم تيارات العصر الحديث ؟ اليس الحق في ان الاستجابة لدخول حضارة اجنية قرار حاسم لمقاطعة هذا الشيء الكريه ؟

فإذا قبلنا في دقة كل جزء من القانون المقدس الذي فرضه علينا إله آباؤنا ان يتحرك هذا الإله بقوة العظيمة للدفاع عنا ضد اعدائنا الكفار ؟ . . في روسيا كان هذا هو رد الفعل عند المؤمنين الشيوخ الذين واجهوا ميتة الشهداء من اجل لحظة خاطفة وفي أعين الأجانب كان رد فعل مسألة طقموس كهنونية لا اهمية لها اما في العالم الإسلامي فقد كان رد الفعل هو ظهور الحركات الوهابية والسنوسية والآردية وغيرهم من اصحاب المذاهب الدينية المتطرفين الذين عاهدوا انفسهم على الجهاد في سبيل الله ضد العثمانيين المارقين الذين خانوا في نظر هؤلاء حين أخذوا بطريقة الحياة الغربية .

الفصل السادس

العالم مع الإغريق والرومان

الإعجاب الذاتي واحد من العيوب التي تصيب المخلوق البشري كما نعرف من التجربة الشخصية وهذا الإعجاب أو التركيز الذاتي عند الإنسان يولد دائماً الغرور في نفسه .

وليس هناك شخص أو قبيلة أو طائفة إلا وتعتقد في نفسها أنها الدعاء للبشرى المختار . وهذا الزيف في اعتمادنا بأن لنا أهمية وقيمة لا نظير لها زيف لا يصبح أمراً واضحاً أمامنا غير أنه سرعان ما نستطيع أن نكتشف هذه المغالطة حين تكون الحالة حالة شخص آخر يملأ الغرور نفسه . ونحن معشر الغربيين باعتبارنا مخلوقات بشرية نميل إلى الشعور بأن ما قدمناه للعالم خلال القرون القليلة الماضية كان شيئاً لم يكن له مثل من قبل . والعلاج الوحيد لهذا الغرور عند الغرب هو أن نرجع إلى الوراء — وليس إلى الوراء البعيد جداً لنرى مقدار ما قدمه الإغريق والرومان للعالم فسرى انهم قد سادوا العالم في عصرهم وأنهم كانوا يعتقدون كذلك في وقت من الأوقات أنهم يختلفون عن غيرهم من الناس . وسرى أيضاً قبل أن نصل إلى نهاية هذه القصة — أى قصة صراع العالم مع الإغريق والرومان أن تقدير المجتمع الإغريق الروماني لأهميته قد انهار حين وضعنا تقديره لأهميته في ميزان التاريخ الذي يحدد الحقيقة .

فقد كان للتوسع الذي أحرزه الغرب في العالم وهو التوسع الذي بدأ مع انتصارنا المفاجيء على المحيطات في أواخر القرن الخامس — كان لهذا التوسع نظير في التاريخ الإغريق الروماني إلا أنه كان توسعاً برياً حدث في عصر الاسكتندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد .

ولقد أحدث زحف الاسكندر من الدردنيل إلى الفيجار عبر آسيا تغيراً
ثورياً في ميزان القوى العالمية مثلما أحدثت رحلات داجاما وكولومبس نفس
الشئ وتبعته هذه الثورة التي أحدثتها الاسكتندركا تبع رحلتى داجاما وكولومبس
انتصارات واسعة تمت بعد ذلك .

ففي القرن الثاني قبل الميلاد غزا الإغريق الهند من الشرق حتى البنجال وكسب
الرومان في نفس القرن أيضاً لصالح العالم الإغريق الرومان موقعاً آمناً على المحيط
الأطلسي فيما يعرف الآن باسم اسبانيا الجنوبية والبرتغال . فكانت اللغة الإغريقية
الأصلية التي كتب بها العهد الجديد في القرن الأول من العصر المسيحي لغة الحديث
كما كانت اللغة المفهومة كذلك بين شعوب المنطقة التي تمتد من الترافستور
حتى البلاد الخلفية من مرسيليا وضمت بريطانيا في نفس هذا التاريخ إلى العالم
الإغريق الرومان بقوة الأسلحة الرومانية بينما كان الفن الإغريق في نفس هذا
الوقت أيضاً — وكان يعمل في خدمة دين هندي هو البوذية — ينتشر في سلام
تجاه الشمال الغربي من أفغانستان على طول طريق كان ينتهي عبر الصين وكوريا
إلى اليابان .

وهكذا انتشرت الحضارة الإغريقية الرومانية في عصرها . داخل مجال
مادى بحث على نطاق واسع في العالم القديم تماماً كما انتشرت الحضارة الغربية
واستطاع الإغريق في عصر لم يكن قد رأى بعد ظهور الحضارة القومية
للأمريكتين استطاعوا أن يفخروا — كما نستطيع أن نفخر نحن اليوم — كذلك
بأن كل حضارة كانت تعاصرهم على وجه الأرض قد وصلت إلى مكانها وتغلغت
فيه بفضل إشعاع حضارتهم التي غزت العالم كله .

وتأثير الحضارة الإغريقية على العالم خلال القرن الرابع قبل الميلاد
وبعده قد سبب لهذا العالم هزة عنيفة تشبه تلك الهزة التي أحدثتها تأثير
الحضارة الغربية المعاصرة على هذا العالم أيضاً منذ القرن الخامس عشر الميلادي .
ولما كانت الطبيعة البشرية لم تجرب بعد أى تغير محسوس خلال آلاف السنين
القليلة الماضية فليس من المدهش أن نرى وجود الفضل البيولوجي البديلة بالنسبة

للغزو الحضاري وهو بما لا يحصى في تاريخ صراع العالم مع الغرب وليس من المدهش أن نرى زحف الفعل هذه تعان عن وجودها أيضاً في تاريخ صراع العالم في فترة أقدم أي مع الإغريق والرومان .

ويمكن لهذه المرحلة من التاريخ أن يجمع معا كلا من تهديها المتزمت وبطرسها العظيم فعلى نموذج بطرس مثلاً ظهر « ميتراديتس » الأكبر الملك الإيراني الذي حكم في آسيا الصغرى وهو الملك الذي تفوق على الرومان بتسليح قواته وتدريبها على النمط الإغريقي والروماني وبمنازلته روما كبطل ونصير للأغريق وحضارتهم .

وقبل نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ظهر شيء ما أشبه مايكون بالتردالهندي بين القوات المصرية الوطنية وهي القوات التي سلحتها ودرّبها على الأسلوب الإغريقي ملك مصر الإغريقي هو « بطليموس » ، بقصد الدفاع عن مناطق نفوذه من أي غزو يقوم به معاصره الإغريقي في جنوب غربى آسيا وأوقع المصريين الذين تدربوا على النمط الإغريقي الهزيمة الساحقة بالقوات الإغريقية وكان هذا الانتصار المدهش على خلفاء جنود الإسكندر الذين لم يكونوا ليهزموا إنما يرجع الفضل فيه إلى قادة هؤلاء المصريين . ثم حدثت بعد ذلك ثورات بين أسوأ كل الشعوب الشرقية خطأ وهي الشعوب التي وقعت تحت حكم إغريق أو روماني وأعنى بها الشعوب الآشورية الذين اختطفهم الإغريق ونفّوهم فيما وراء البحار للعمل كرقى مصفدين بالأغلال في مزارع الإغريق في جزيرة صقلية وقام هؤلاء الرقيق الآشوريون في صقلية في فترة ما قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد بثورتين يائستين ضد ساداتهم من الإغريق والمناصرين لهؤلاء السادة من الرومان .

على أن هذه القصة البشعة للاضطهاد العنيف والثورة الوحشية التي حدثت في الفصول الأولى من تاريخ صراع العالم الإغريقي والروماني قد وجدت لها أيضاً امتداداً في الفصول التي نعرفها من تاريخ صراع هذا العالم مع الغرب .

فتجارة الرقيق التي تأثرت بالغرب واصطبغت بطابعه وهي السياسة التي كانت وصمة جاز في جبين شعوب البحر الأبيض المتوسط قد ظهرت مرة أخرى في الأطلنطي وثورة عبيد الأرض التي قضى عليها في جزيرة صقلية قد أحرزت مثلتها انتصارات رائعة وحركة التمرد التي أعلنتها القوات المصرية التي تنربت تدريباً أفريقياً في عهد بطليموس قد شابهتها حركة تمرد قام بها الجنود الذين تدربوا هم الآخرون تدريباً غريباً في عهد شركة الهند الشرقية البريطانية ويجب أن نلاحظ أن حركات المقاومة التي يقوم بها الشرقيون العسكريون ضد السيادة الأجنبية وهي تكرار لثورات اليهود الفاشلة المعادية للصليبية وتكرار أيضاً لثورات الناجحة التي قاست بها الشعوب الإيرانية المعاصرة المعادية للهيملينية هذه الحركات أي حركات المقاومة العسكرية تعيش اليوم في إبان معمراتها في الهند الصينية وفي الملايو وتهدد بانفجار رهيب في ثلاث مناطق من أفريقيا (كان هنا الوضع في عام ١٩٥٢ حين وضع توينبي هذا الكتاب) .

وإلى هذا الحد نستطيع أن نقرأ القصة في تاريخنا دون الحاجة إلى الرجوع إلى الملفات الأفريقية والرومانية ولكننا نصل الآن بل تتجاوز المدى الذي يستطيع الأصبع المتحرك أن يكتب عنده على الصفحة المفتوحة من كتابنا آخر الأحداث من تاريخنا الذي لا يزال مجهولاً أما فيما وراء هذا المدى — واتصد به المستقبل — حيث يخفي الستار ما سيأتي بعد فإن التاريخ الإغريقي الروماني يمثل أغنى مصدر للمعلومات الوافية حول ما يمكن أن يكون نجماً لنا .

وإنا لا أقصد بالطبع أن أشير إلى أن في استطاعتنا أن نقرأ طالع مستقبلنا بملاحظاتنا ما حدث في التاريخ الإغريقي الروماني فيما وراء هذا المدى حيث يتوقف سجل تاريخنا وترجمتنا بطريقة آلية ما سجله التاريخ الإغريقي الروماني من عبارات غريبة حديثة . فالتاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه بطريقة آلية . وأعظم ما يمكن أن يوحى به إلينا التاريخ الإغريقي والروماني هو أن يكشف لنا عقدة من بين عدد كثير من عقد المستقبل المحتملة في الدراما الغربية الحديثة .

ومن المفهوم أننا معشر الغربيين ومعنا كذلك معاصرونا من غير الغربيين فيها

نضني على طريقة صراع كل منافع الآخر دوراً مختلفاً ليس له مقابل في التاريخ الاغريقي والروماني ونحن حين نتفحص في مستقبلنا نكون كمن يتحسس طريقه في وسط ظلام معتم فعلياً ان نكون في منتهى اليقظة حتى لا تقع في الوهم الذي يلوح لنا بأن في مقدورنا ان ترسم حدود خريطة الطريق الخبوء امامنا وسنكون كذلك من الغباء والحمق حين لانستفيد من بصيص اى عضو يلوح امام اعيننا وقد يكون شعاع الضوء الذي تعكسه على مستقبلنا مرآة ماضى التاريخ الاغريقي الروماني هو على اى حال اقوى الاضواء المنظورة امامنا .

وبهذا الحرص والحذر سنواصل تقليب صفحات كتاب تاريخ الاغريق والرومان حتى نصل إلى صورة منتصف طريق العالم الاغريقي الروماني خلال القرن الثاني بعد المسيح وحين نقارن هذه بصورة نفس هذا العالم قبل ذلك بما تتي عام فسندرك على الفور أنه في هذه الفترة الفاصلة ظهر تغيير إلى أحسن لم يكن له لسوء الحظ نظير في تاريخنا الغربي الحديث فقد تأثر العالم الاغريقي — الروماني في خلال القرن الاخير قبل الميلاد بثورات وحروب وإشاعات حروب وظل يفور ويغلي بحركات عنف وهياج كما يعيش عالمنا الغربي اليوم ولكننا نجد السلام في منتصف الطريق خلال القرن الثاني بعد الميلاد يسيطر على منطقة تمتد من جانييز حتى تايين .

وهذه المنطقة الفسيحة التي تمتد من الهند حتى بريطانيا والتي أنتشرت في ارجائها الحضارة الاغريقية الرومانية بقوة السلاح هذه المنطقة نراها مقسمة اليوم بين دول لا يزيد عددها عن ثلاث وهذه الدول الثلاث تعمل على أن تعيش جنباً إلى جنب دون إحداث أى احتكاك خطير بينها .

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط والإمبراطورية البارثية في العراق وإيران والإمبراطورية الكوشية في آسيا الوسطى وكذلك أفغانستان والهندوستان وكانت كل هذه المناطق تشمل كل العالم الاغريقي الروماني بينها ومع أن مؤسسى هذه الإمبراطوريات الثلاث وسادتها قد كانوا ينتمون جميعاً إلى اصل غير اغريقي الا انهم مع ذلك كانوا عشاق كل

ما هو إغريق وكانوا فخورين بأن يطلقوا على انفسهم هذه التسمية اى انهم كانوا يرون أن من واجبه من عيظاتهم ان يدعموا الشكل الإغريق للحضارة وان يعملوا من قدر نظام المجالس البلدية ذات الحكم الذاتى التى يبقى وجودها على وجود طريقة الحياة الإغريقية .

ثم لتغلغل إلى اعماق وعقول الملايين من الإغريق والرومان وإلى ملايين أكثر من الهيلينيين واشباه الهيلينيين من الشرقيين السابقين الذين كانوا يعيشون تحت ظل سلام القرن الثانى الكوشى البارثى الرومانى .

لقد انحسرت الآن أمواج الحرب وأمواج الثورة التى غمرت نفوس أجداد هذا الجيل ولم يعد هناك اثر أو ذكرى حية لكابوس المتاعب التى شهدوها ذلك العصر فقد استقرت الحياة الاجتماعية بفضل السياسة البناءة الجديدة . ومع أن هذا الاستقرار كان ينقصه وجود بعض المثل العليا فى ميدان العدالة الاجتماعية إلا أنه كان أمراً محتملاً حتى بالنسبة للفلاحين والعمال بينما كان بديلاً أفضل — فى نظر كل الطبقات من الفوضى الاجتماعية التى وضع لها هذا الاستقرار نهاية طويلة . وأصبحت الحياة الآن أكثر اماناً كما كانت عليه فى السابق وان كانت — لنفس السبب ايضاً — أكثر ثقلاً وعبوساً .

على ان العمل الطيب الذى قامت به الحكومات ذات السلطة القادرة قد خلق عن غير عمد فراغاً روحياً فى النفوس الانسانية فكيف يمكن إمداد ملء هذا الفراغ ؟ هذا هو السؤال الهام فى العالم الإغريق الرومانى خلال القرن الثانى بعد المسيح ولكن الفلاسفة والموظفين المستعيرين لم يكونوا يعرفون بعد أن مثل هذا السؤال كان مطروحاً على بساط البحث والذين قرأوا مدلولات العصور واتخذوا إجراء عملياً فى ضوء هذه المدلولات هم رجال الأديان الشرقية الذين لم يكونوا معروفين بعد فهؤلاء الذين كانوا يدعون إلى الايمان بهذه الديانات الغريبة قد سلبوا فى رقة ولطف عنصر المبادأة من أيدي الإغريق والرومان بل كان هذا السلب من الرقة بحيث أن هذه الايدي القوية الصلبة لم تشعر بأى لمس ومن ثم لم يكن عند أصحابها أى نوع من الخوف أو الانزعاج . إلا أن الموجة قد تحولت فى ميدان

اختبار القوى الاغريقية الرومانية من العالم فقد انتهى هجوم القوى الاغريقية الرومانية وظهر هجوم مضاد آخر في الافق ولكن هذه الحركة المضادة لم يكن قد اعترف بها بعد لأنها تختلف عن سابقتها فالهجوم الاغريقى الرومانى كان هجوما سياسيا عسكريا اقتصاديا بينما كان الهجوم المضاد الجديد هجوما دينيا وكان امام هذه الحركة الجديدة مستقبل هائل كما سيوضح الزمن . وإلى هنا نحب ان نتساءل ما هو سر او ما هي اسرار هذا النجاح الذى احرزته القوى المضادة الجديدة ؟ الواقع اننا نستطيع ان نضع ايدينا على ثلاثة اسرار من اسرار هذا النجاح . اولها هو المثل الأعلى الذى جاءت به هذه الأديان الجديدة فيما يتعلق بالأخوة الإنسانية وهو المثل او الشكل الذى قضى على صراع الحضارات .

وثانيها هو ان هذه المجتمعات الجديدة التى فتحت ابوابها لجميع الناس من جميع الجنسيات والحضارات دون تمييز بين حضارة واخرى ، او بين طبقة واخرى او بين رجل وامرأة قد جعلت الأعضاء الإنسانيين الذين ينتمون إليها يرتبطون باله علوى .

ثالثها هو السلام الذى دعت إليها هذه الديانات الجديدة .

وهكذا انقضى آخر فصل فى تاريخ صراع العالم مع الاغريق والرومان فبعد أن تغلب الاغريق والرومان على العالم بقوة السلاح استطاع هذا العالم أن يأخذهم بعد ذلك اسرى بتحويلهم إلى هذه الأديان الجديدة التى وجهت رسالتها إلى البشر جميعاً دون تمييز بين حكام ورعية أى بين اغريق وشرقيين فهل يمكن ان يحدث مثل هذا الشيء الذى حدث مع الاغريق والرومان فى الفصل الذى لم ينته بعد من قصة الصراع العالم مع الغرب .

نحن لا نستطيع ان نذكر الاجابة الآن مادامنا لانستطيع ان تنبأ بما سياتى به المستقبل ولكننا نستطيع فقط ان ندرك ان الشئ الذى حدث مدة فى فصل اخر من فصول التاريخ يمكن ان يكون حدوثه محتملا فيما تاتى به الايام .

الدار القومية للطباعة والنشر
١١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥



١٥٧ شارع عبير - روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina



0603533